ابتكار المحامد
"لا أحد أحب إليه المدحة من الله"
نايف بن علي بن عبدالله القفاري

ابتكار المحامد

"لا أحَدَ أحَبُّ إليه المِدحةُ مِنَ اللهِ"

1447 ذو القعدة

نايف بن علي بن عبدالله القفاري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله وسلم على عبده رسول الله.. أما بعد:

فأهل الأقلام وأصحاب اللسان يتسابقون إلى ابتكار المدائح ونحتها شعرًا كان أو نثرًا.. يتكلفون ذلك رغبة في عطايا الكرام من البشر.. ويتغاير الخلق أو يتحاسدون إذا مدح نظيره بمدحةٍ مبتكرة وكان يرى نفسه أحق بها..

كتب الأدب مليئة بهذا النسيج..

من ذلك خبر الشاعر **أَبِي الْحَسَنِ بْن عَلِيّ بْنِ جَبَلَةَ الملقب "بِالْعَكَوَّكِ"**؛ لِقِصَرِهِ وَسِمَنِهِ، قَالَ الْجَاحِظُ: مَا رَأَيْتُ بَدَوِيًّا وَلَا حَضَرِيًّا أَحْسَنَ إِنْشَادًا مِنْهُ.

هذا الشاعر مدح أحد أمراء الدولة العباسية: **أبا دُلف** الْقَاسِم بْن عِيسَى الْعِجْلِيّ -كان قائدًا زمن الخليفة المأمون والمعتصم وهو شاعر وأديب. وكان أمير الكرخ، وسيد قومه، وكان شجاعًا كريمًا-، مدحه ابن جبلة في قصيدة طويلة سارت بها الركبان؛ حتى قيل: إنها من أجمل ما قيل في المدح؛ منها قوله:

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفٍ ... بَيْنَ مَغْزَاهُ وَمُحْتَضَرِهْ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلَفٍ ... وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهْ
كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

سارت هذه القصيدة في الأمير أبي دلف مسير الشمس والريح، وأخذ الشاعر منه بها مالًا جليلًا.

وقيل: إنه لما قال هذه القصيدة استحسنها القوم الحاضرون لمجلس أبي دُلف، وقالوا: أيها الأمير ما هذه من قِبلِه، وما هي إلا من نجْر رقيق الطبع، فقال له أبو دلف: ألا تسمع ما يقولون؟ قال: بلى أصلح الله الأمير.

قال: والذي يصدقك؟! قال: أن أعطى صدورًا فأردفها بأعجاز، فضحك أبو دلف؛ وقال: أنصفت وبالغت، ثم تناول أبو دلف القلم والبياض وكتب له بيتين من الشعر، ثم ناوله البيتين وقال له: ابن لي عليه أبياتًا، وقد أجّلتك فيه حولًا. فقال: أيها الأمير، تأمر فيفرغ لي بيت حتى يكون أجلى للشك. فأمر أبو دلف أن يخلى له بيت، ثم ركب أبو دلف إلى المأمون وخرج معه متصيدًا، فرجع آخر النهار، فلما نزل، لم ينزع

سواده –اللباس الرسمي في الدولة العباسية أسود–، ثم قال: ليت شعري ما خبر عليّ بن جبلة الشاعر؟ فقالوا: أيها الأمير، إنه زعم أنه فرغ من عمل القصيدة، فقال: ويحكم أخرجوه إليّ، فأُخرج.

فقال أبو دلف: هيه يا عليّ، ما عملت؟ قال: قد فرغت، قال: هات ويحك، بيّض وجهي عند من زعم أنك لست بشاعر، فأنشأ يقول قصيدة طويلة جميلة ضمنها مدائح أخرى في أبي دلف منها قوله:

لولا نـدى القـاسـم كنّـا هملا ... لم يعتقـد مجـد ولم يرع حسـب
ولم يـقـم بـيـوم بأس ونـدى ... ولا تلاقى حسـب إلى حسـب
يا واحـد الـدّنيـا ويا باب النّـدى ... ويا مجيـب الرّعـب في يوم رهـب
لولاك مـا كـان سـدى ولا نـدى ... ولا قـريـش عـرفـت ولا عـرب
خـذهـا امتحـانا من مليء بالثّنـا ... لـكـنّـه غـير مـلـيء بالـنّشـب
وقـرّ بالأرض أو اسـتـنـفـر بهـا ... أنـت عليهـا الرأس والنّـاس ذنـب

فتهلل وجه أبي دلف سرورًا به، وقال له: أحسنت لله أنت! **ومثلك فليمدح الملوك**. ثم أمر له بمائة ألف درهم، وخلعةٍ سنيةٍ وفرسٍ من مراكبه الخاصة، واعتذر إليه من التقصير.

وكعادة الشعراء في مدح العلية وأهل الكرم طلبًا للثواب منهم، **أراد الشاعر بن جبلة العكوك مدح قائد عسكري آخر من أهم قادة الخليفة المأمون يدعى حميد بن عبد الحميد الطوسي**؛ فَقَالَ لَهُ حميد: مَا عَسى أَن تَقول فِينَا؛ وَمَا أبقيت لنا! بعد قَوْلك فِي أبي دلف:

إِنَّمَـا الـدُّنْـيَـا أَبُـو دُلَـفٍ ... بَـيْنَ مَـغْـزَاهُ وَمُحْـتَضَـرِهْ
فَـإِذَا وَلَّى أَبُـو دُلَـفٍ ... وَلَّـتِ الـدُّنْـيَـا عَـلَـى أَثَـرِهْ

فَقَالَ ابن جبلة: أصلح الله الْأَمِير؛ قد قلت فِيك مَا هُوَ أحسن من هَذَا! فَقَالَ الأمير حميد: مَا هُوَ فَأَنْشد:

إِنَّمَـا الـدُّنْـيَـا حمـيـد ... وأياديـه الجسـام
فَـإِذا ولى حمـيـد ... فـعـلـى الـدُّنْـيَـا السَّـلَام

قال: فتبسم حميد ولم يقل شيئًا. وتعجب كل من حضر المجلس من جودة بديهته، لأنهم علموا أنه إنما قالهما على البديهة في ذلك الوقت، ثم أجمع حاضرو المجلس من أهل الْعلم بالشعر أَن هَذَا أحسن مِمَّا قَالَه فِي أبي دلف فَأَعْطَاهُ الأمير حميد وَأحسن جائزته وأرغد له. قال الصفدي: (قلت قَوْله فِي أبي دلف أحسن عِنْد

من لَهُ ذوق لاسيما قَوْله (ولت الدُّنْيَا على أَثَره) قال ابن المعتز: (وسار بيتاه في أبي دلف بين الخاصة والعامة، ولم يسر بيتاه في حميد حسب ذلك، وإنما يرويهما أهل الأدب وخاصة الناس وأهدى علي بن جبلة إلى حميد الطوسي مرة في يوم نيروز قصيدة طويلة يمدحه فيها، فسر بها حميد وقال: والله إنها أحب إليّ من جميع ما أهدي إلى في هذا اليوم! وكان أهدي إليه من الناس من فنون الهدايا ما بلغ خطرًا عظيمًا).. لكنه حب مبتكرات المدائح..

قصيدة علي بن جبلة في الأمير أبي دلف طارت كل مطار حتى بلغت الخليفة المأمون؛ فلما بلغ المأمون خبرها **غضب!** وقال: اطْلُبُوْهُ. فَهَرَبَ مِنْهُ كُلَّ مَهْرَبٍ، ثُمَّ أُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ! يَا ابْنَ اللَّخْنَاءِ! فَضَّلْتَ الْقَاسِمَ بْنَ عِيسَى "أبا دلف" عَلَيْنَا؟!

فَقَالَ ابن جبلة: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ اصْطَفَاكُمُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ عِبَادِهِ، وَآتَاكُمْ مُلْكًا عَظِيمًا، وَإِنَّمَا فَضَّلْتُهُ عَلَى أَشْكَالِهِ وَأَقْرَانِهِ. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَبْقَيْتَ أَحَدًا، وَلَقَدْ أَدْخَلْتَنَا فِي الْكُلِّ حَيْثُ تَقُولُ:

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

جَعَلْتَنَا نَسْتَعِيرُ مِنْهُ المكَارِمِ؟! وَمَعَ هَذَا فَلَا أَسْتَحِلُّ قَتْلَكَ بِهَذَا، وَلَكِنْ بِكُفْرِكَ وَبِشِرْكِكَ، حَيْثُ تَقُولُ فِي عَبْدٍ ذَلِيلٍ -قصيدة أخرى مدح بها ابن جبلة أبا دلف-:

أَنْتَ الَّذِي تُنْزِلُ الْأَيَّامَ مَنْزِلَهَا ... وَتَنْقُلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ
وَمَا مَدَدْتَ مَدَى طَرْفٍ إِلَى أَحَدٍ ... إِلَّا قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَآجَالِ

ذَاكَ اللَّهُ يَفْعَلُهُ! أَخْرِجُوا لِسَانَهُ مِنْ قَفَاهُ. فَأَخْرَجُوا لِسَانَهُ مِنْ قَفَاهُ فَمَاتَ فِي سَنَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَمائَتَيْنِ، وَمَاتَ كَهْلًا. وقيل إنّ الخليفة لم يقتله[1].

قال النويري (وللشعراء عادة في تجاوز قدر الممدوح فوق ما يستحقّه حتى إنّ ذلك أفضى بكثير منهم الى الكفر والخروج عن الحدّ أعاذنا الله من ذلك)[2].

(1) يراجع في خبر بن جبلة طبقات الشعراء لابن المعتز (١٧٨)، والوافي بالوفيات للصفدي (١٧2/٢٠)، السير للذهبي (١٩٣/١٠)، مسالك الأبصار للعمري (153/١٠) البداية والنهاية لابن كثير.
(2) نهاية الأرب 174/3.

من تجاوز قدر الممدوح:

مدح المتنبي للأمير سيف الدولة الحمداني في قوله:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ

لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

قال ابن القيم: ولو قال ذلك في ربّه وفاطره لكان أسعد به من مخلوق مثله[3].

وقال ابن كثير: وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الاسلام أحمد بن تيمية رحمه الله أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله عز وجل. وأخبرني العلامة شمس الدين بن القيم رحمه الله أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو لله بما تضمناه من الذل والخضوع[4]. وذكر ابن القيم أن الشيخ ابن تيمية قال له مرّة وقد أنشد بيتي المتنبي: لا ينبغي أن يُقال هذا إلا لله، ولا ينبغي أن يقال لمخلوقٍ. وكان –ابن تيمية– يُنشدُهما ويُرَدِّدُهما مرارًا، وقال: ربَّما دعوتُ في السجود بهما دعاءً لا إنشادًا[5].

ومن التجاوز في المدح:

ما قاله أَبُو شُجَاعِ بْنُ رُكْنِ الدَّوْلَةِ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنِ بْنِ بُوَيْهِ الدَّيْلَمِيُّ، صَاحِبُ الْعِرَاقِ، وَمَلِكُ بَغْدَادَ وَغَيْرِهَا الملقب بعضد الدولة. كان شاعرًا، خرج مَرَّةً إِلَى بُسْتَانٍ لَهُ فَقَالَ: **أَوَدُّ لَوْ جَاءَ الْمَطَرُ، فَنَزَلَ الْمَطَرُ فَأَنْشَأَ يَقُولُ شعرًا منه:**

لَيْسَ شُرْبُ الْكَأْسِ إِلَّا فِي الْمَطَرْ ... وَغِنَاءٌ مِنْ جِوَارٍ فِي السَّحَرْ

عَضُدُ الدَّوْلَةِ وَابْنُ رُكْنِهَا ... **مَالِكُ الْأَمْلَاكِ غَلَّابُ الْقَدَرْ**

سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بُغْيَتَهُ ... فِي مُلُوكِ الْأَرْضِ مَا دَارَ الْقَمَرْ

قَالَ ابن الجوزي: فَيُقَالُ: إِنَّهُ مُنْذُ قَالَ: **غَلَّابُ الْقَدَرْ، لَمْ يُفْلِحْ بَعْدَهَا.**

---

(3) شفاء العليل (٢/٢٥٥)

(4) البداية والنهاية 292/11 ط: دار إحياء التراث في زيادة (من الذل والخضوع) وفي طبعات أخرى بدون هذه اللفظة.

(5) الكلام على مسألة السماع (١/٣٤١).

قال ابن كثير: وَذَكَرَ غَيْرُهُ: أَنَّ **هَذِهِ الْأَبْيَاتَ آخِرُ مَا أُنْشِدَتْ فِيهِ بَيْنَ يَدَيْهِ**، ثُمَّ كَانَتْ وَفَاتُهُ عَقِبَ ذَلِكَ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ 372هـ، عَنْ سَبْعٍ أَوْ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً.

وعضد الدولة هذا: **هُوَ أَوَّلُ مَنْ تَسَمَّى «شَاهِنْشَاهْ»، وَمَعْنَاهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ**. قال أبو علي الفارسيّ: منذ تلقَّب بذلك تَضَعْضَع، وما كفاه هذا حتَّى مَدح نفسَه فقال: [... **مَلِكَ الأملاكِ غَلَّابَ القَدَرْ**].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ أَوْضَعُ اسْمٍ – وَفِي رِوَايَةٍ: أَخْنَعُ اسْمٍ – عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عز وجل. قال ابن كثير: كَانَ سَبَبَ مَوْتِهِ دَاءُ الصَّرْعِ، وَحِينَ أَخَذَتْهُ عِلَّةُ مَوْتِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ كَلَامٌ سِوَى تِلَاوَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)[6].

وبنو بويه كان لديهم نزعة التجاوز في قدر الممدوح؛ ذكر ابن كثير أنه فِي رَمَضَانَ من سنة 429هـ لُقِّبَ جَلَالُ الدَّوْلَةِ **شَاهِنْشَاهِ الْأَعْظَمَ مَلِكَ الْمُلُوكِ** بِأَمْرِ الْخَلِيفَةِ، وَخُطِبَ بِذَلِكَ عَلَى الْمَنَابِرِ، **فَنَفَرَتِ الْعَامَّةُ مِنْ ذَلِكَ، وَرَمَوُا الْخُطَبَاءَ بِالْآجُرِّ**، وَوَقَعَتْ فِتْنَةٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَاسْتُفْتِيَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ، ونقل ابن كثير ما دار بين الفقهاء في هذا الشأن[7]. ثم قال في حوادث 430هـ: وَفِيهَا خُوطِبَ أَبُو مَنْصُورِ بْنُ جَلَالِ الدَّوْلَةِ بِالْمَلِكِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ مُقِيمٌ بِوَاسِطٍ، وَهَذَا الْعَزِيزُ هُوَ الَّذِي كَانَ آخِرَ مَنْ تَمَلَّكَ مِنْ بَنِي بُوَيْهِ بِبَغْدَادَ، **لَمَّا طَغَوْا وَبَغَوْا وَتَمَرَّدُوا وَتَسَمَّوْا بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ، وَهُوَ اسْمٌ يُبْغِضُهُ اللَّهُ، فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ مَا كَانَ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ الْمُلْكَ إِلَى غَيْرِهِمْ**، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)[8].

ومن الممدوحين من يلهم الخضوع والذل إذا مدح بما ليس فيه؛ كالحسن بن زيد العلوي والي طبرستان قال له شَاعِرٌ فِي جُمْلَةِ قَصِيدَةٍ مَدَحَهُ بِهَا:

اللَّهُ فَرْدٌ وَابْنُ زَيْدٍ فَرْدُ

فَقَالَ له الأمير: وَيْلَكَ! لَا تَقُلْ! هَلَّا قُلْتَ:

اللَّهُ فَرْدٌ **وَابْنُ زَيْدٍ عَبْدُ**

---

(6) البداية والنهاية 15/411-413، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لابن الجوزي ١٧/٥٥٦.

(7) البداية والنهاية 15/669-671.

(8) البداية والنهاية (١٥ / ٦٧٣)

ثُمَّ نَزَلَ عَنْ سَـرِيرِهِ -عرش الملك-، **وَخَرَّ سَـاجِدًا لِلَّهِ عز وجلّ وَأَلْصَـقَ خَدَّهُ بِالتُّرَابِ**، وَلَمْ يُعْطِ ذَلِكَ الشَّاعِرَ شَيْئًا[9].

ومن اللطائف:

ما روي أنَّ أبا بكر الصـدّيق رضـي الله عنه لما حضـرته الوفاة؛ قالت عائشـة رضـي الله عنها -وهو يغمض- تمدح أباها ببيت قاله أبو طالب في النبي صلى الله عليه وسلم:

وأبيض يسـتسـقى الغمام بوجهه ثمـال اليتـامى عصـمـة للأرامـل

فنظر إليها أبو بكر وقال: **ذاك رسـول الله** ﷺ! لم يرض رضـي الله عنه وهو في سـياقة الموت أن يُمدح ببيت قيل في رسول الله صلى الله عليه وسلم[10].

وعمر بن عبدالعزيز قدمت عليه امرأة من العراق؛ فَلَمَّا صَـارَت إِلَى بَابه قَالَت هَل على أَمِير الْمُؤمنِينَ حَاجِب؟ فَقَالُوا: لَا فلجي إِن أَحْبَبْت. فَدخلت الْمَرْأَة على فَاطِمَة وَهِي جالسـة فِي بَيتهَا وَفِي يَدهَا قطن تعالجه، فَسـلمت فَردَّتْ عليها السـلام، وَقَالَت لَهَا: ادخلي، فَلَمَّا جَلَسـت الْمَرْأَة رفعت بصـرها فَلم تَرَ فِي الْبَيْت شَيْئا لَهُ بَال! فَقَالَت: إِنَّمَا جِئْت لأعمر بَيْتِي من هَذَا الْبَيْت الخرب!

فَقَالَت لَهَا فَاطِمَة: إِنَّمَا خرب هَذَا الْبَيْت عمَارَة بيُوت أمثالك.

فَأقبل عمر حَتَّى دخل الدَّار، فَمَال إِلَى بِئْر فِي نَاحيَة الدَّار فَانْتزع مِنْهَا دلاء صبها على طين كَانَ بِحَضْرَة الْبَيْت وَهُوَ يكثر النّظر إِلَى فَاطِمَة فَقَالَت لَهَا الْمَرْأَة اسـتتري من هَذَا الطيان فَإِنِّي أَرَاهُ يديم النّظر إِلَيْك فَقَالَت لَيْسَ هُوَ بطيّان هُوَ أَمِير الْمُؤمنِينَ. قَالَ: ثمَّ أقبل عمر فَسـلم وَدخل بَيته فَمَال إِلَى مصـلى كَانَ لَهُ فِي الْبَيْت يُصَلِّي فِيهِ فَسـأَلَ فَاطِمَة عَن الْمَرْأَة، فَقَالَت: هِيَ هَذِه، فَأخذ مكتلا لَهُ فِيهِ شَـيْء من عِنَب فَجعل يتَخَيَّر لَهَا خَيره يناولها إِيَّاه ثمَّ أقبل عَلَيْهَا فَقَالَ: مَا حَاجَتك فَقَالَت امْرَأَة من أهل الْعرَاق لي خمس بَنَات كسـل كسـد فجئتك أَبْتَغِي حسـن نظرك لَهُنَّ فَجعل يَقُول كسـل كسـد ويبكي فَأخذ الدواة والقرطاس وَكتب إِلَى وَالِي الْعرَاق، فَقَالَ: سمّي كبراهن، فسمتها فَفرض لَهَا، فَقَالَت الْمَرْأَة: **الْحَمد لله**. ثمَّ سَـأَلَ عَن الثَّانِيَة وَالثَّالِثَة وَالرَّابِعَة وَالْمَرْأَة **تحمد الله** فَفرض لَهَا، فَلَمَّا فرض للأربع اسـتفزها الْفَرح فدعَتْ لَهُ فجزته خيرًا، فَرفع يَده! وَقَالَ: قد كُنَّا

(9) البداية والنهاية (593/14).

(10) نهاية الأرب (١٧٥/٣).

نفرض لَهُنَّ حِين كنت تولين الْحَمد أَهله فمري هَؤُلَاءِ الْأَرْبَع يفضن على هَذِه الْخَامِسَة)[11]. فلم يرض عمر بن عبدالعزيز أن يُحمد على فعله؛ وأراد أن يفرد الله بالحمد تعظيمًا وإجلالًا واستحقاقًا. فهو المعطي المانع. أما البشر: فحينما يعطي فإنما يعطي لينفع نفسه؛ ليقوم بواجب تبرأ به ذمته أمام الله؛ ليشتري لذة العطاء بالعطاء؛ ليشتري لسان المعطَى[12].

عودًا على بدء.. المراد من خبر الشاعر ابن جبلة: أنّ مما يحبه الخلق ويكافئون عليه.. ويشترونه.. المدح! خاصة إذا كان من الإعلاميين؛ ليسمعه الخلائق.. وكان الأدب شعرًا ونثرًا منصة الإعلام المتاحة حينها.. **ألست ترى اليوم مشاهير المنصات الإعلامية الحالية يُجلبون بالثمن إلى مجالس أهل الثراء ومن يبحث عن الجاه؛ ليتلقط له صورة وهو يمدحه! علّها أن تطير كل مطار..**

هذا حال البشر مع المديح.. فإذا كان المدح مبتكرًا فهو أرغب ما يكون.. وتضاعف له العطايا..

والشاعر ابن جبلة: مدح مخلوقًا ضعيفًا فكافأه دنيًا ومالًا.. ولا زال يمدح ويبالغ في مدحه حتى جعله لله ندًا في بعض أشعاره.. وكان هذا الأمر جزاءه الغيرة.. ثم حتفه.. لأجل مدحة مبتكرة

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

تلك أخبار مدائح فقير بين يدي فقير.. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) الغني الحميد.. يحب الثناء الجميل بذكر نعمه وفضائله وجميل أفعاله؛ وهو المستحق له..

---

(11) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم الفقيه (149-١٥٠).

(12) في الوسيط للواحدي تفسير سورة الفاتحة: حُكِي أن ابن التوءم كان يقول: إنما يجب أن يشكر من إن جاد عليك فلك جاد، وإن نفعك فنفعك أراد، من غير أن يرجع إليه من جوده بشيء من المنافع على جهة من الجهات، وهو الله وحده لا شريك له. ألا ترى أن عطية الرجل لصاحبه لا تخلو من أن تكون لله أو لغيره فإن كانت لله فثوابها على الله، فلا معنى للشكر، وإن كانت لغير الله فلا تخلو من أن تكون لطلب المجازاة، أو حب المكافأة، وهذِه تجارة معروفة، والتاجر لا يشكر على تجارته، وجر المنفعة إلى نفسه، وإما أن تكون لخوف يده أو لسانه، أو رجاء نصرته أو معونته، ولا معنى لشكر من هذِه إحدى أحواله، وإما أن تكون للرقة والرحمة، ولما يجد في قلبه من الألم، ومن جاد على هذا السبيل، فإنما داوى نفسه من دائها، وخفف عنها ثقل برحائها. فأما من مدحه بشار بن برد بقوله:

لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلِلْخَوْ ... فِ وَلَكِن يَلَذُّ طَعْمَ العَطَاءِ

فأي معنى لشكر من يعطي لاجتلاب لذته، ويجيب داعي رأفته) انتهى. مع ملاحظة أن شكر المحسن من المخلوقين من شكر الله تعالى وهو مأمور به (خذ من أموالهم صدقة وصل عليهم).

هو أهل المحامد.. وهو أكرم وأجود من يجزي ويعطي.. فيثيب حياة طيبة في الدنيا وجنة في الآخرة.. لا يملكهما سواه ولا تطلب إلا منه جل وعز.

في البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لا أحَدَ أحَبُّ إليه المِدحةُ مِنَ اللهِ، ومِن أجلِ ذلك وعَدَ اللهُ الجَنَّةَ" وفي رواية لمسلم: "مِن أجلِ ذلك مَدَحَ نَفسَه". في المسند من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: قرأ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ هذهِ الآيةَ وهو على المنبرِ (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) قال: "يقولُ اللهُ: أنا الجبارُ، أنا المتكبرُ، أنا الملكُ، أنا المتعالُ، يمجِّدُ نفسَه. قال: فجعل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ يُرَدِّدُها حتى رجف به المنبرُ حتى ظننا أنه سيَخِرُّ به".

وإذا نظرت: فأول سورة في القرآن "الفاتحة" كلها حمد وثناء وتمجيد وتفويض.. وإذا نظرت: فآية الكرسي أعظم آية في القرآن لما حوته من تمجيد وثناء، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن لأنها صفة الرحمن وثناء عليه جل وعزّ..

الله تعالى لكماله المطلق مدح نفسه؛ لأنه أهل المدح والثناء، ولأن الخلق لا يقدرون على مدحه بما يستحق، كما قال الرسول -ﷺ-: "لا أُحصي ثَناءً عليك، أنتَ كما أثنَيتَ على نَفسِك" رواه مسلم[13].

ومدح الله تعالى نفسه؛ ليُعلّم عباده الشاكرين الحامدين كيفية الثناء عليه جل وعز.

(13) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١ / ٢٥٨).

وهل يشرع ابتكار المحامد في الثناء على الله؟ أو يلزم المنقول فقط؟

الجواب:

ظاهر النصوص أن ابتكار المحامد مستحب مندوب؛ ومحبوب إلى الله تعالى، ودليله الآتي:

1-في حديث الشفاعة الطويل المتفق عليه، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "فأنطَلِقُ فآتي تَحتَ العَرشِ، فأقَعُ ساجِدًا لرَبِّي عزَّ وجلَّ، ثُمَّ يَفتَحُ اللهُ عليَّ مِن مَحامِدِه وحُسنِ الثَّناءِ عليه شيئًا لم يَفتَحْه على أحَدٍ قَبلي" هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: "فأنطَلِقُ، فآتي تَحتَ العَرشِ، فأقَعُ ساجِدًا لرَبِّي، ثُمَّ يَفتَحُ اللهُ عليَّ ويُلهِمُني مِن مَحامِدِه، وحُسنِ الثَّناءِ عليه شيئًا لَم يَفتَحْه لأحَدٍ قَبلي". أفاد الحديث: أن ابتكار المداح والثناء فتح من الله يفتحه على من يشاء من عباده، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم يفتح الله له فتحًا حسنًا. وأفاد أن الفتح ليس خاصًا بالأنبياء ولا الرسل بل يشمل كل الخلائق؛ لعموم "لم يَفتَحْه على أحَدٍ قَبلي". ويتأكد صحة هذا الفهم بالآتي.

2-ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي رواه مسلم: أنَّ رَجُلًا جاءَ فدَخَلَ الصَّفَّ وقد حَفَزَه النَّفَسُ، فقال: الحَمدُ للَّهِ حَمدًا كَثيرًا طَيِّبًا مُبارَكًا فيه، فلَمَّا قَضى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صَلاتَه قال: أيُّكُمُ المتَكَلِّمُ بالكَلِماتِ؟ فأرَمَّ القَومُ، فقال: أيُّكُمُ المتَكَلِّمُ بها؟ فإنَّه لَم يَقُلْ بَأسًا، فقال رَجُلٌ: جِئتُ وقد حَفَزَني النَّفَسُ فقُلتُها، فقال: لقد رَأيتُ اثنَي عَشَرَ مَلَكًا يَبتَدِرونَها، أيُّهم يَرفَعُها.

وعند البخاري من حديث رفاعة بن رافع قصة أخرى وأن اللفظ قيل بعد الرفع من الركوع، ونصه: كُنَّا يَومًا نُصَلِّي وراءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلَمَّا رَفَعَ رَأسَه مِنَ الرَّكعةِ قال: سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَه، قال رَجُلٌ وراءَه: رَبَّنا ولَكَ الحَمدُ حَمدًا كَثيرًا طَيِّبًا مُبارَكًا فيه، فلَمَّا انصَرَفَ قال: مَنِ المتَكَلِّمُ؟ قال: أنا، قال: رَأيتُ بضعةً وثَلاثينَ مَلَكًا يَبتَدِرونَها أيُّهم يَكتُبُها أوَّلُ"

فأرمّ القوم: لزموا السكوت. يبتدرونها: أي يتسارعون فيها كلهم يريد أن يصعد بها إلى الله عز وجل.

فدل الخبر على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يبتكرون المحامد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأقرهم صلى الله عليه وسلم على ذلك، إذ لو كان اللفظ من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً لما حصل استغراب من النبي صلى الله عليه وسلم ولا سؤال ولكان الناطق يشاركه غيره من الصحابة في هذا الذكر؛ لأن التعليم عامٌ فلا استغراب إلا لأنه منفرد به ومبتكر لم يسمع من قبل. ولو كان الابتكار منهيًا عنه ابتداءً لما نطق الصحابي بغير ما تعلمه من النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولو كان نطقًا يخالف التعليم لما أخر النبي صلى

الله عليه وسلم تذكير الصحابي بلزوم المنقول مع ثنائه عليه أو بعده؛ خاصة وأن نطق الصحابي بهذا المبتكر كان بحضور جماعة فهو أدعى للبيان وإلى عدم تأخير الإنكار لو كان النطق بالمبتكر خطأ؛ إذ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة مع قوة احتمال التأسي بخطأ.

3-عموم الأخبار؛ كعموم قوله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ، لا يُلقي لها بالًا، يَرفَعُه اللهُ بها دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن سَخَطِ اللهِ، لا يُلقي لها بالًا، يَهوي بها في جَهَنَّمَ" رواه البخاري. فيدخل في عموم "الكلمة من رضوان الله" ابتكار المحامد.

ومن الأخبار العامة حديث ابن مسعود في دعاء التشهد، وفي آخره أنه صلى الله عليه وسلم قال: "ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعاءِ أعجَبَه إليه، فيَدعو" متفق عليه، هذا اللفظ من النبي صلى الله عليه وسلم "أعجبه إليه" لفتة إيمانية وجدانية تجعل العبد انفعالي القلب، يسكب على لسانه من عين قلبه.

قد يجد المرء في محمدته التي اخترعها أو اختارها مما أعجبه حرارة وجدانية، يجد فيها افتقارًا وذلًا وتعبيرًا لحاجته، ويحصل بها من الخشوع والخضوع ما هو مقصود المناجاة والدعاء ولب العبادة؛ ولعل هذا هو سرّ ما نقل عن ابن تيمية في دعائه بأبيات المتنبي في صلاته.

4-ثمّ ليس كل الناس يطيق حفظ المنقول؛ فمن العوام من يثقل على لسانه الألفاظ الفصيحة أو لا يفهما فيناجي ربه ثناءً ودعاء بما يفهمه ويطيقه وله في ذلك أسوة، ففي سنن أبي داود: "أنّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال لرجُلٍ: كيف تقولُ في الصَّلاةِ؟ قال: أتَشهَّدُ وأقولُ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُك الجنَّةَ، وأعوذُ بك مِن النارِ، أمَا إنِّي لا أُحسِنُ دَنْدَنَتَكَ ولا دَندَنةَ معاذٍ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: حَوْلَها نُدَنْدِنُ" والدَّنْدنةُ: الطَّنطنةُ كلام يُسمع نغمته ولا يفهم. إنك لترى هذا في كثير من العوام من كبار السن وأهل البادية، ألهمه الله محامد وأدعية توافق المشروع ولا تعارضه وإذا تأملتها أبصرت فيها جمالًا وجلالًا.. رأيتها تفيض عبودية وافتقارًا وتفويضًا. رأيت مرة مقطع فيديو لشيخ مصري "الشيخ جابر عبدالحميد" يحكي أنه كان يشرح لقاصدي العمرة من أهل بلده المناسك وكان يحفظهم جملة من الأدعية النبوية، وذكر أن كبيرًا في السن عنّاه الحفظ ويتفلت منه وهو يحاول، فلما رأى الشيخ حاله هكذا، قال له: تعرف تقول: "يا رب مليش غيرك" قال: نعم. قال: كررها وقل عقبها حاجتك أو حاجة من تريد من أقاربك.. يقول الشيخ: فنزل معي إلى المطاف فبدأ يكرر العامي "يا رب مليش غيرك" في خضوع وخشوع ويبكي، يقول الشيخ من حلاوتها على لسانه وضعت يدي على كتفه ونسيت ما أحفظ من الأدعية وجلست أردد معه "يا رب مليش غيرك" حتى انقضت الأشوط السبعة وكلانا يبكي.

وهـذا اللفظ: "يا رب مليش غيرك" هو معنى لا إلـه إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو معنى "الصمد"، لفظ كله توحيد وتفويض لكنه بلهجة عامية.

ومن المحامد التي يرددها الوالد ضمن أذكاره في الصباح: يا مُصبِّح بالخيرات يا مُصَبّح بالنعم. وهذا اللفظ معناه صحيح وهو ثناء يتضمن الطلب. ووالدي أميٌّ درس في مدرسة الحياة -رزقني الله بره ومتعنا به-.

ومع القول بمشروعية ابتكار المحامد إلا أننا نشير إلى أمرين:

الأول: ينبغي التفريق بين مقام السنة ومقام المندوب:

فإذا ابتكر مدحة فلا يجوز اعتقاد سنية هذا اللفظ؛ وإنما مشروع مندوب؛ فالسنة وصف يلازم المنقول، واعتقاد المندوب مسـنونًا غلط وهو من التعدي (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ). فباب المندوب لما أصـله مشـروع وثبت به النص من جهة العموم، أوسـع من باب المسـنون الذي ثبت به النص الخاص.

ورفع رتبة الأحكام الشـرعية أو خفضـها من التعدي، فخفض المسـنون إلى مباح أو رفع المسـنون إلى واجب من التعدي، وكذلك المندوب رفع رتبته إلى مسـنون أو خفضـها إلى مكروه من التعدي. هكذا في كل الأحكام "الواجب والمسـتحب والحرام والمكروه والمباح" لا ترفع ولا تخفض رتبتها. والمندوب درجات أعلاها المسنون.

ومن هذا يعلم: أن المحمدة المبتكرة متى ما دُعي الناس إلى أن يتخذوها كالأوراد المسنونة في الفضل والرتبة واللزوم؛ كان ذلك محذورًا منهيًا عنه كأوراد شـيوخ الطريقة. وكذلك إذا وجدت الذريعة المفضـية غالبًا إلى هذا الاعتقاد في لفظ مبتكر تتابع عليه الناس حتى يخشـى أن ينزلوه منزلة اللفظ المسـنون، فترك هذا اللفظ المبتكر حينئذٍ هو المشروع من باب سد الذريعة المفضية إلى البدعة في هذا اللفظ بخصوصه.

والثاني: أنّ أسمى المحامد وأعلاها وأجزلها وأفخرها وأفخمها وأشملها:

هي المدائح التي أثنى الله بها على نفسـه في القرآن أو نقلها القرآن عن أنبياء الله، أو أثنى بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في صحيح السنة.. ولزومها فيه بركة الاتباع.

في شـعب الإيمان للبيهقي وفي كتاب الشـكر لابن أبي الدنيا: قال جعفر بن محمد: (فقد أبي -محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب- بغلته، فقال: لئن ردها الله علي لأحمدنّه بمحامد يرضـاها، فما لبث

أن أُتي بها بسرجها ولجامها، فركبها، فلما استوى عليها، وضم إليه ثيابه، رفع رأسه إلى السماء، فقال: **(الحمد لله)، لم يزد عليها، فقيل له في ذلك، فقال: وهل تركت شيئًا أو أبقيت شيئًا جعلت الحمد كله لله عز وجل). فاتحة القرآن (الحمد لله) لم تبق من المحامد شيئًا إلا دخل فيها**؛ ولهذا جاء في الخبر عند مسلم "الحمد لله تملأ الميزان"، وقد وقع خلاف في أفضل الثناء على الله هل هو (الحمد لله) أو كلمة التوحيد (لا إله إلا الله). لكن جاء النص على أن (لا إله إلا الله) خير ما قاله النبيون وبها يدخل المرء الإسلام ومن كانت آخر كلامه وجبت له الجنة. قال ابن رجب: (وقد حكى هذا الاختلافَ ابنُ عبد البرِّ وغيره. وقال النَّخعي: كانوا يرون أن الحمدَ أكثرُ الكلام تضعيفًا، وقال الثوري: ليس يُضاعف من الكلام مثل الحمد لله. والحمدُ يتضمَّنُ إثباتَ جميع أنواع الكمال لله، فيدخل فيه التوحيد)[14].

فإن قيل: ما الحاجة إلى ابتكار المحامد والمنقول خير ألفاظ المحامد وأشملها

فالجواب:

أن صرف الذهن في ذلك وتطلب الجديد والبديع هو في حد ذاته عبادة، وهو باب لم يغلق، والنبي صلى الله عليه وسلم أقرّ فعل الصحابة في ابتكار الثناء نثرًا وشعرًا، ومدح قول لبيد (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) ففي البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال: "أصدَقُ بَيتٍ قالهُ الشَّاعِرُ: ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ" وفي مسلم: "أشعَرُ كَلِمةٍ تَكَلَّمَت بها العَرَبُ كَلِمةُ لَبيدٍ: ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ".

ثم الابتكار لا يكون في اللفظ فقط وإنما يكون في الزمان والحال والمكان كما سيأتي.

وأيضًا: هو من باب التنويع، والتنويع في المدائح ظاهر في القرآن والسنة، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يثني على الله بألفاظ مدائح شتى، منها العام ومنها الخاص، ويحمد اختصارًا واسترسالًا؛ وهذا ظاهر في صيغ الدعاء في الاستفتاح، وصيغ حمد الله بعد الرفع من الركوع" وصيغ الأذكار؛ كأذكار النوم وأذكار الطعام وغيرها. وهذا التنويع في المدائح والثناء على الله تعالى يدل على أنه أمر محمود منشود محبوب؛ فلا أحد أحب

(14) جامع العلوم والحكم (٢/٢٠). قال ابن تيمية: (شَهَادَةُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ بِصِدْقِ وَيَقِينٍ تُذْهِبُ الشِّرْكَ كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ؛ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ وَتَأْتِي عَلَى جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَخَفَايَاهُ وَدَقَائِقِهِ. وَالِاسْتِغْفَارُ يَمْحُو مَا بَقِيَ مِنْ عَثَرَاتِهِ وَيَمْحُو الذَّنْبَ الَّذِي هُوَ مِنْ شُعَبِ الشِّرْكِ فَإِنَّ الذُّنُوبَ كُلَّهَا مِنْ شُعَبِ الشِّرْكِ. فَالتَّوْحِيدُ يُذْهِبُ أَصْلَ الشِّرْكِ وَالِاسْتِغْفَارُ يَمْحُو **فُرُوعَهُ فَأَبْلَغُ الثَّنَاءِ قَوْلُ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَبْلَغُ الدُّعَاءِ قَوْلُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ**) مجموع الفتاوى (١١ / ٦٩٧). وفي تفسير الفاتحة للقرطبي ذكر الأقوال والخلاف.

إليه المدحة من الله، والقرآن كذلك تضمن هذا وهذا، تضمن الثناء على الله إيجازًا واطنابًا، وعامًا وخاصًا بحسب المقام والسياق.

خذ مثلًا من القرآن: في سورة الفاتحة (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) حمد مطلق من الظرف الزماني والمكاني لاستغراق جميع المحامد في كل الأماكن والأزمان والأحوال وعلى كل شيء. وفي سورة الروم ذكر الحمد وأن من ظروفه المكانية السماوات والأرض في قوله: (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وفي سوره القصص ذكر أن من ظروف الحمد الزمانية الدنيا والآخرة في قوله: (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)، وقال في أول سورة سبأ (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[15]. وفي سورة الأنعام حمدٌ على خلقه وعلى رحمته وحكمته أن جعل الظلمات والنور: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ). وفي سورة فاطر حمدٌ على خلق السماوات والأرض وجعل الملائكة رسلًا: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا)، وفي سورة سبأ حمدٌ على ملكه جل وعز (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، وفي سورة الكهف حمدٌ على نموذج من آلاء الله ونعمه (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)[16].

التغابط في ابتكار المدائح في الله الجليل:

قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ: قُلْتُ فِي الزُّهْدِ عِشْرِينَ أَلْفَ بَيْتٍ، وَوَدِدْتُ أَنَّ لِي مَكَانَهَا الْأَبْيَاتَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي قَالَهَا أَبُو نُوَاسٍ، وَهِيَ هَذِهِ وَكَانَتْ مَكْتُوبَةً عَلَى قَبْرِهِ:

يَا نُوَاسِيُّ تَوَقَّرْ ... وَتَعَزَّ وَتَصَبَّرْ

إِنْ يَكُنْ سَاءَكَ دَهْرٌ ... فَلَمَا سَرَّكَ أَكْثَرْ

يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ عَفْوُ اللَّهِ ... مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرْ[17]

ففيها مدح الله بعظم مغفرته.. ولا يغفر الذنوب الكبار إلا واسع الكرم..

وَجَلَسَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي دُكَّانِ وَرَّاقٍ، فَكَتَبَ عَلَى ظَهْرِ دَفْتَرٍ:

أَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ

(15) ينظر: تفسير أضواء البيان سورة الفاتحة.

(16) ينظر: https://tadars.com/tdbr/eloquence/2461

(17) البداية والنهاية 68/14.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

ثُمَّ جَاءَ أَبُو نُوَاسٍ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنَ، قَاتَلَهُ اللَّهُ! وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهَا لِي بِجَمِيعِ شَيْءٍ قُلْتُهُ! لِمَنْ هَذِهِ؟ فقِيلَ له: لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ. فَأَخَذَ الدَّفْتَرَ أبو نواس، فَكَتَبَ إِلَى جَانِبِهَا:

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْـ ـقَ مِنْ ضَعِيفٍ مَهِينِ
يَسُوقُهُ مِنْ قَرَارٍ إِلى قَرارٍ مَكِينِ
يَحُورُ شَيْئًا فَشَيْئًا فِي الْحُجُبِ دُونَ الْعُيُونِ
حَتَّى بَدَتْ حَرَكَاتٌ مُخْلُوقَةٌ مِنْ سُكُونِ(18)

من ابتكارات المدائح:

1-لزوم مدحة حبًا لها:

ودليله: حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعَثَ رَجُلًا على سَريَّةٍ، وكان يَقرَأُ لأصحابِه في صَلاتِهم **فيَختِمُ** بـ(قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ)، فلَمَّا رَجَعوا ذَكَروا ذلك للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: سَلوه لأيِّ شيءٍ يَصنَعُ ذلك؟ فسَألوه، فقال: لأنَّها صِفةُ الرَّحمَنِ، وأنا أُحِبُّ أن أقرَأَ بها، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبِرُوه أنَّ اللهَ يُحِبُّه. متفق عليه. وفي البخاري معلقًا عن أنس رضي الله عنه: كان رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ يَؤُمُّهم في مَسجِدِ قُباءٍ، وكان كُلَّما **افتَتَحَ** سورةً يَقرَأُ بها لهم في الصَّلاةِ مِمَّا يُقرَأُ به افتَتَحَ: بـ(قُل هو اللهُ أحَدٌ) حتَّى يَفرُغَ مِنها، ثُمَّ يَقرَأُ سورةً أُخرى معها، وكان يَصنَعُ ذلك في كُلِّ رَكعةٍ، فكَلَّمَه أصحابُه، فقالوا: إنَّك تَفتَتِحُ بهذه السُّورةِ، ثُمَّ لَا تَرى أنَّها تُجزِئُك حتَّى تَقرَأَ بأُخرى، فإمَّا تَقرَأُ بها، وإمَّا أن تَدَعَها وتَقرَأَ بأُخرى، فقال: ما أنا بتارِكِها، إن أحبَبتُم أن أؤُمَّكُم بذلك فعَلتُ، وإن كَرِهتُم تَرَكتُكُم، وكانوا يَرَونَ أنَّه مِن أفضَلِهم، وكَرِهوا أن يَؤُمَّهم غَيرُه، فلَمَّا أتاهمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبَروه الخَبَرَ، فقال: «يا فُلَانُ، ما يَمنَعُك أن تَفعَلَ ما يَأمُرُك به أصحابُك، وما يَحمِلُك على لُزومِ هذه السُّورةِ في كُلِّ رَكعةٍ» فقال: إنِّي أُحِبُّها، فقال: «حُبُّك إيَّاها أدخَلَك الجَنَّةَ».

هذا يفتتح بها وذاك يختم، والحديث يدل على التفريق بين اعتقاد السنة واعتقاد المشروعية؛ فلما علل الصحابي تعليلًا أصله مشروع من غير اعتقاد السنية في هذا اللزوم، أقره النبي صلى الله عليه وسلم عليه،

(18) البداية والنهاية 77/14

وذكر أن هذا الحب لهذه السورة وما فيها من صفات الرحمن ومدح للجليل بكمال النعوت أدخله الله بهذا الحب الجنة. قال ابن تيمية: (هذا -الحديث- يقتضي أن ما كان صفة لله من الآيات فإنه يستحب قراءته، والله يحب ذلك، ويحب من يحب ذلك، ولا خلاف بين المسلمين في استحباب قراءة آيات الصفات في الصلاة الجهرية التي يسمعها العامي وغيره)[19].

2-جمال الربط في الموقف زمانًا أو مكانًا بما يتضمن مدحًا للجليل في صفة من صفاته.. وهذا كثير، ومن ذلك:

أ-الحجاج بن يوسف مدح الله تعالى في موقف احتضاره: بسعة وعظم عفو الله بما لا يخطر على بال بشر. فنقل عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ قَالَ: مَا حَسَدْتُ الْحَجَّاجَ عَدُوَّ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ حَسَدِي إِيَّاهُ عَلَى حُبِّهِ الْقُرْآنَ وَإِعْطَائِهِ أَهْلَهُ، **وَقَوْلِهِ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تَفْعَلُ.**

ونقل ابن أبي الدنيا بسنده عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يُبْغِضُ الْحَجَّاجَ، **فَنَفَسَ عَلَيْهِ بِكَلِمَةٍ قَالَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّكَ لَا تَفْعَلُ.** قَالَ: وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالَ: قِيلَ لِلْحَسَنِ: إِنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ عِنْدَ الْمَوْتِ كَذَا وَكَذَا قَالَ: أَقَالَهَا؟ قَالُوا: نَعَمْ. **قَالَ: عَسَى.** وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ، عَنِ الرِّيَاشِيِّ، عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتِ الْحَجَّاجَ الْوَفَاةُ أَنْشَأَ يَقُولُ:

يَا رَبِّ قَدْ حَلَفَ الْأَعْدَاءُ وَاجْتَهَدُوا ... بِأَنَّنِي رَجُلٌ مِنْ سَاكِنِي النَّارِ
أَيَحْلِفُونَ عَلَى عَمْيَاءَ وَيْحَهُمُ ... مَا عِلْمُهُمْ بِعَظِيمِ الْعَفْوِ غَفَّارِ

قَالَ: فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ الْحَسَنُ فَقَالَ: **تَاللَّهِ إِنْ نَجَا فَبِهِمَا.**

وَزَادَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ:

إِنَّ الْمَوَالِيَ إِذَا شَابَتْ عَبِيدُهُمْ ... فِي رِقِّهِمْ عَتَقُوهُمْ عِتْقَ أَبْرَارِ
وَأَنْتَ يَا خَالِقِي أَوْلَى بِذَا كَرَمًا ... قَدْ شِبْتُ فِي الرِّقِّ فَاعْتِقْنِي مِنَ النَّارِ[20]

(19) التسعينية (١/١٢٤).
(20) البداية والنهاية (١٢ / ٥٤٩)

أخرج ابن عساكر عَن أَشْعَث قَالَ رَأَيْت الْحجَّاج فِي مَنَامِي بِحَال سَيِّئَة قلت مَا صنع بك رَبك قَالَ مَا قتلت أحدا قتلة إِلَّا قتلني بهَا قلت ثمَّ مَه قَالَ ثمَّ أَرْجُو مَا يَرْجُو أهل لَا إِلَه إِلَّا الله[21].

ب-أبو نواس الشاعر المتماجن، مدح الجليل بمثل مدح الحجاج بين يوسف، وقيل السبب مدحه الخالق في جمال صنعه وآثار فعله:

في تاريخ ابن كثير: أن أبا نواس رَآهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: **غَفَرَ لِي بِأَبْيَاتٍ قُلْتُهَا فِي النَّرْجِسِ:**

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا فَعَلَ الْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ فَاخِرَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قَصَبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: **غَفَرَ لِي بِأَبْيَاتٍ قُلْتُهَا، وَهِيَ تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَاءُوا فَوَجَدُوهَا فِي رُقْعَةٍ بِخَطِّهِ وَهِيَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ:**

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ ... فَمَنِ الَّذِي يَدْعُو وَيَرْجُو الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا ... فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمُ[22]

إن صدقت هذه الرؤى فهي مثال على قوله صلى الله عليه وسلم: إنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ، لا يُلقي لها بالًا، يَرفَعُه اللهُ بها دَرَجاتٍ". وكان أبو نواس حسن الظن بالله تعالى، في تاريخ ابن كثير: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: دَخَلْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ الْهَاشِمِيُّ: يَا أَبَا عَلِيٍّ، أَنْتَ الْيَوْمَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ، **وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ هَنَاتٌ، فَتُبْ إِلَى اللَّهِ عز وجل مِنْ عَمَلِكَ.** فَقَالَ: إِيَّايَ تُخَوِّفُ بِاللَّهِ؟! فَقَالَ: أَسْنِدُونِي. فَأَسْنَدُوهُ. فَقَالَ: حَدَّثَنِي حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ شَفَاعَةً، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي

(21) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للسيوطي (٢٨٣) ونقله عن ابن عساكر تاريخ دمشق.
(22) البداية والنهاية 81/14 وما بعدها

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ قَالَ: أَفَتُرَانِي لَا أَكُونُ مِنْهُمْ؟[23]. عَن سهل أخي حزم قَالَ رَأَيْت مَالك بن دِينَار بعد مَوته فَقلت مَاذَا قدمت بِهِ على الله؟ قَالَ: قدمت بذنوب كَثِيرَة محاها عني حسن الظَّن بِاللَّه[24].

ج-جمال المدح ربطًا بما يفيد تعظيمًا لله العظيم قولًا وزمانًا ومكانًا:

قال أبو عبيدة: التقى جرير والفرزدق بمنى -وهما حاجان- فقال الفرزدق والله لأفسدن عليه إحرامه، فقال لجرير:

فإنك لاقٍ بالمنازل من منى ... فخارًا فأخبرني بما أنت فاخر

فقال له جرير: لبيك اللهم لبيك.

قال أبو عبيدة: أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويعجبون منه[25].

وهو جواب عجيب وبديع من جرير! فإن شئت فهمته فخرًا بالله والعبودية له وتعظيمًا للمكان والزمان. وإن شئت فهمت بإرشاد النبي صلى الله عليه وسلم للصائم: "وإنِ امرُؤٌ قاتَلَه أو شاتَمَه فليَقُلْ: إنِّي صائِمٌ"، وإن شئت جمعت بين الفهمين.

ومما يعين على فهم هذه المنحة من الله لجرير بهذا الجواب البديع في زمان ومكان معظم: أنّ جريرًا كان كثير الذكر لله تعالى، رأى عثمان الْبَتِّيّ جريرًا منشغلًا بذكر الله تعالى، رأه.. وشفاه جرير ما تُضَمُّ من كثرة التَّسْبِيح! قال له عثمان: وَمَا يَنْفَعُكَ هَذَا، وَأَنْتَ تَقْذِفُ الْمُحْصَنَةَ؟! فَقَالَ جرير: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ" إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ" وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ حَقٌّ[26]. أخبر الأصمعي: أنّ رجلًا رأى جَرِيرًا فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي. فَقِيلَ: بِمَاذَا؟ قَالَ: بِتَكْبِيرَةٍ كَبَّرْتُهَا بِالْبَادِيَةِ. قِيلَ لَهُ: فَمَا فَعَلَ الْفَرَزْدَقُ؟ قَالَ: أَيْهَاتِ، أَهْلَكَهُ قَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: لَمْ يَدَعْ جريرٌ الفرزدق من هجائه فِي الْحَيَاةِ وَلَا فِي الْمَمَاتِ![27]

---

(23) البداية والنهاية 65/14

(24) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للسيوطي (٢٧٧)، وذكر أنه نقله من تاريخ دمشق لابن عساكر.

(25) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٤٥/٧) ثمرات الأوراق في المحاضرات (٧١/١).

(26) البداية والنهاية لابن كثير 41/13.

(27) البداية 51/13 بتصرف. وفي شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للسيوطي (٢٧٧): وَأخرج -ابن عساكر- عَن الْأَصْمَعِي عَن أَبِيه قَالَ رأى رجل فِي الْمَنَام جَرِيرًا الخطفي بعد مَوته فَقَالَ لَهُ مَا فعل بك رَبك قَالَ غفر لي قَالَ بِمَاذَا قَالَ بتكبيرة كبرتها فِي ظهر مَاء بالبادية قَالَ فَمَا فعل أَخُوك الفرزدق قَالَ إِنَّمَا أهلكه قذف الْمُحْصنَات.

والتكبير لله في البادية: جمع بين جمال المدح باللفظ (الله أكبر). وبين انفراده في المكان: بذكر الله تعالى في مكان غفلة وبعد عن الرياء، فهو أكمل في صدق التوجه والإخلاص والخشية لله تعالى، وله نظير فضيلة الصلاة في الفلاة، ففي أبي داود عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصَّلَاةُ فِي جَمَاعَةٍ تَعْدِلُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ صَلَاةً، فَإِذَا صَلَّاهَا فِي فَلَاةٍ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا: بَلَغَتْ خَمْسِينَ صَلَاةً وصححه الألباني.

د–ابتكار الرد بما يفيد حسن الظن بالله وصدق الافتقار إليه:

زوجة الفرزدق "النوار" لما حضرتها الْوَفَاة أوصَتِ الفرزدق أن يُصَلِّي عَلَيْهَا الْحسن الْبَصْرِيّ، فَأخْبرهُ الفرزدق بذلك. فَقَالَ الحسن: إِذا فرغتُم مِنْهَا أعلمني. فأُخرجت جنازتها وَجَاء الْحسن وسبقهما النَّاس إلى موضع الصلاة فانتظروهما، فَأَقْبَلَا –الحسن والفرزدق– وَالنَّاس ينظرُونَ، فَقَالَ الْحسن: مَا للنَّاس؟!

فَقَالَ الفرزدق: ينتظرون خير النَّاس وشرّ النَّاس.

فَقَالَ الحسن: إِنِّي لستُ بخيرهم ولستَ بشرّهم.

وَقَالَ الْحسن للفرزدق يعظه وهو على قبرها: مَا أعدَدت لهَذَا المضجع؟

فَقَالَ الفرزدق: شَهَادَةُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُنْذُ ثَمَانِينَ سَنَةً. فَقَالَ الحسن: اثْبُتْ عَلَيْهَا وَأَبْشِرْ أَوْ نَحْوَ هَذَا. وفي رواية: فقال الحسن: نِعْمَتِ الْعُدَّةُ وَنِعْمَتِ الْعُدَّةُ. وقيل: إن الحسن قال له: هذا العمود فأين الطنب؟[28] فقال الفرزدق:

أخاف وراء القبر إن لم تعافني ... أشد من القبر التهابا وأضيقا

إذا جاءني يوم القيامة قائد ... عنيف وسواق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى الموت مغلول القلادة أزرقا

فبكى الحسن حتى بلّ كمه.

(28) يعني: أن كلمة التوحيد عمودُ الفسطاط، ولكن لا يثبتُ الفسطاطُ بدون أطنابه، وهي فعلُ الواجبات، وتركُ المحرَّمات. ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (٥٢٢/١)

قال لبطة بن الفرزدق: رأيت أبي في النوم، فقال لي: يا بني، نفعتني الكلمة التي خاطبت بها الحسن عند القبر. وفي الوافي للصفدي: (رُئِيَ فِي النّوم فَقيل لَهُ مَا فعل الله بك قَالَ غفر لي بإخلاصي يَوْم الْحسن)[29]. وكان الفرزدق حسن الظن بالله تعالى، قيل له مرّة: عَلَامَ تَقْذِفُ الْمُحْصَنَاتِ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَلَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَيْنَيَّ هَاتَيْنِ أَتُرَاهُ مُعَذِّبِي بَعْدَهَا[30]. وحكي عنه: أنه قيد نَفسه بِقَيْد وآلى أَلا يفكه حَتَّى يحفظ الْقُرْآن فَمَا فكه حَتَّى حفظه[31].

وجه ابتكار الحمد من الفرزدق في هذا الموطن: كان في افتقاره -فأي مؤمن لا يخلو من عمل صالح؛ لكنه افتقر؛ فلم ير إلا الشهادة. وكما أنّه جواب مفتقر، فهو جواب محسن للظن بكريم إذا مَنّ.. غمر بكرمه.. (الحمد لله)

هـ- ابتكار إفراد التعظيم لله؛ وأنه المنفرد بكمال التعظيم بين يدي من يعظمه البشر..

اسْتَسْقَى مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ بِالنَّاسِ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ حِينَ أَقْحَطُوا بِإِفْرِيقِيَّةَ، فَأَمَرَ الناس بالصلاة والصلاح وبِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ قَبْلَ الِاسْتِسْقَاءِ، ثُمَّ خَرَجَ بَيْنَ النَّاسِ وبرز بهم إلى الصحراء، وَمَيَّزَ أَهْلَ الذِّمَّةِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَمعه سائر الحيوانات وفَرَّقَ بَيْنَ الْبَهَائِمِ وَأَوْلَادِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَفْعِ الضَّجِيجِ وَالْبُكَاءِ "وعند الذهبي: فوقع البكاء والضجيج"، وَهُوَ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ "الذهبي: إلى الظهر"، ثم صلى وخطب فما ذكر الوليد بن عبدالملك الخليفة، ثُمَّ نَزَلَ فَقِيلَ لَهُ: **أَلَا دَعَوْتَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟** فَقَالَ: **هَذَا مَوْطِنٌ لَا يُذْكَرُ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ. فَسَقَاهُمُ اللَّهُ، لَمَّا قَالَ ذَلِكَ**[32].

وعند الذهبي: قال: **هذا مقام لا يُدعى فيه إلا الله**، فسقوا وأغيثوا[33].

لا أحد أحب إليه المدحة من الله، ولا أحد أغير من الله، ومواطن الافتقار والعبادة لا يذكر فيها إلا الله جل وعز. ومن الجهل أن يقرن اسم مخلوق فقير باسم ملك قادر قاهر في موطن استضعاف أو ثناء على الله

---

(29) ينظر: حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (١٠١)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور السيوطي (٢٨٠) وذكر أنه في تاريخ دمشق. وينظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧ / ١٣٨)، الوافي بالوفيات للصفدي (٢٧ / ٢٢٨)، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار الزمخشري (٥ / ١٥١).

(30) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا – ابن أبي الدنيا (١٠١).

(31) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي عبد القادر البغدادي (١ / ٢٢٢).

(32) البداية والنهاية 12 /628.

(33) سير أعلام النبلاء 498/4.

جل وعزّ "الله أعلى وأجل" من أن يقرن اسمه باسم مخلوق.. ولما امتن الله على محمد صلى الله عليه وسلم بأن رفع ذكره فإنما ذكر بأنه عبدٌ لله جل وعز.

فالمقامات التي يقرن فيها اسم محمد صلى الله عليه وسلم بالله تعالى جدّه: مقامات حمدٍ للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه عبدٌ لله جل وعلا، ففي التشهد "وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله" وفي الأذان: (أشهد أن محمدًا رسول الله) فمُدِح بأنه مبلغ عن الله، والتبليغ: مقام عبودية أيضًا..

و–من ابتكار المحامد: ابتكارها في الزمان بأن يحمد الله في لحظات غفلة؛ أو مكان غفلة..

فيكون منفردًا بالحمد في هذه اللحظة أو المكان.. والانفراد باليقظة بين غافلين أمر محمود يحبه الله، يدل عليه فضل العبادة في الهرج وفضل ذكر الله تعالى في السوق وما نقل من أن الدعاء في المجلس لحظة غفلة الجالسين ساعة استجابة..

ومن هذا تكبيرة جرير في البادية..

ومن هذا: صلاة الأوابين عند اشتداد الحر في آخر الضحى.

ومن هذا أيضًا: كان أهل قيام الليل أهل محبة الله؛ لما تحويه صلاة الليل من محامد لله وخضوع وذل في وقت غفلة. مَكْلَبَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُسْتَنْجِدِيُّ: كَانَ تُرْكِيًّا صالحًا عَابِدًا زَاهِدًا، كان يقوم الليل فسَمِعَ الْمُؤَذِّنَ وَقْتَ السَّحَرِ وَهُوَ يُنْشِدُ عَلَى الْمَنَارَةِ:

يا رجال اللَّيلِ جُدُّوا ... رُبَّ صوتٍ لا يُرَدُّ

ما يقومُ اللَّيل إلا ... مَنْ له عَزْمٌ وجِدُّ

فَبَكَى مَكْلَبَةُ بكاءً شديدًا، وصاح بالمؤذّن: يَا مُؤَذِّنِي زِدْنِي، فَقَالَ الْمُؤَذِّنُ:

قَدْ مَضَى اللَّيْلُ وَوَلَّى ... وَحَبِيبِي قَدْ تَجَلَّى

فَصَرَخَ مَكْلَبَةُ صَرْخَةً كَانَ فِيهَا حَتْفُهُ فمات. فاجتمع جميعُ مَنْ ببغداد على باب داره، وكان يومًا عظيمًا لم ير ببغداد مِثْلُه، وأُخرجت جنازته، فالسَّعيد مَنْ وَصَلَ إلى نعشه[34].

اللهم ألحقنا بالصالحين.. وأعذنا من الغفلة..

(34) وذكر في مرآة الزمان: أنه قُطِّعَ الكَفَنُ قِطَعًا! ومراده والله أعلم أن الجهلة أخذوا من كفنه قطعًا تبركًا بكفنه. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢٢ / ١٢٣)، البداية والنهاية (١٦ / ٧١٣).

ز–ومما له صلة بالسابق وهو من جميل المحامد:

النطق بالمحامد في غفلات الحال، وأعظمها حال النشوة فرحًا أو حال الألم مصيبة..

ولهذا كان سجود الشكر عبادة عند أول تجدد النعم أو اندفاع النقم؛ فأن تقبل أول شيء حال النشوة على الله وتخضع له ساجدًا؛ فهذا حال يدل على يقظة القلب واعترافًا بالمنعم الواحد الصمد.. الله جل وعلا عاب من إذا رفع عنه البلاء مرّ ذاهلًا غافلًا عن شكر المنعم والعبودية له (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). فعند تجدد النعم أو اندفاع النقم أكثر من الحمد للكريم واجتهد أن تكون عبداً شكورًا.. فليس وراء الشاكر إلا مقصر مذموم أو كفور..

ومن هذا: الثناء على الله عند حلول المصائب؛ فهي لحظة غفلة! وهي إحدى محك ظهور محبة العبد لربه –كما سيأتي–، وما يُلقَّى الثناء على الله فيها إلا أصحاب القلوب الحية، الصابرون؛ (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)، وعند أحمد والترمذي: عن أبي موسى الأشعَريّ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قال اللهُ تَعالى: "يا ملَكَ الموتِ، قَبَضتَ وَلدَ عبدي؟ قَبَضتَ قُرَّةَ عَينِه وثَمَرةَ فُؤادِه؟ قال: نَعَمْ، قال: فما قال؟ قال: حَمِدَكَ واسترجَعَ، قال: ابْنُوا له بَيتًا في الجَنَّةِ، وسَمُّوه بَيتَ الحَمدِ".

من السيول العظيمة التي مرت على مكة: سَيْلُ الْجُحَافِ[35]؛ وكان فِي خِلَافَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ سَنَةَ 80 هـ، قال خالد بْنُ أَبِي عُثْمَانَ الْبَصْرِيُّ: كُنْتُ تِلْكَ السَّنَةَ بِمَكَّةَ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا يَذْهَبُ بِهِ السَّيْلُ وَهُوَ يَقُولُ: **لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، إِنْ كُنْتَ ابْتَلَيْتَ لَطَالَمَا عَافَيْتَ**[36].

عروة بن الزبير ابتلي ببلاءين متقاربين في سفرة واحدة: ابتلي في قدمه فقطعت من الركبة، وابتلي بأحد أولاده دخل ولده اصطبل الدواب فرفسته دابة فقتلته فكان حمّادًا لله.

---

(35) في أخبار مكة للفاكهي (٣ / ١٠٥) وَإِنَّمَا سُمِّيَ سَيْلَ الْجُحَافِ: أَنَّهُ جَاءَ السَّيْلُ وَهُمْ بِالْأَبْطَحِ، فَجَحَفَهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ وَهُمْ غَارُّونَ قَدْ نَزَلُوا فِي الْوَادِي وَاضْطَرَبُوا الْأَبْنِيَةَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَطَرِ إِلَّا شَيْءٌ يَسِيرٌ، إِنَّمَا كَانَ رَشَاشًا، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَأَحَاطَ بِالْكَعْبَةِ، وَهَدَمَ الدُّورَ الشَّوَارِعَ عَلَى الْوَادِي، وَمَاتَ فِي الْهَدْمِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَفَرَّ النَّاسُ مِنْهُ فِي الْجِبَالِ وَالشِّعَابِ، وَخَرَجَ الْعَوَاتِقُ مِنَ الْخُدُورِ.

(36) أخبار مكة (٣ / ١٠٦).

يقول ابنه هشـــام: ما سمع من أبي في ذلك شـــيء حتى قدم المدينة -يعني راجعًا من ســـفره وقد ناله البلاءان معًا- فقال لما قدم المدينة: اللهم إنّه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت ثلاثة فلك الحمد، وكان لي بنون أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد؛ وايم الله لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن أبليت طالما عافيت[37]، وحكى هشام أن أباه كان يقول: مَا أَحْسَنَ صُنْعَ اللَّهِ عز وجل إِلَيَّ، أَخَذَ مِنِّي وَاحِدَةً وَتَرَكَ لِي ثَلَاثَةً-وَكَانَ قُطِعَ رِجْلُهُ مِنْ أَكَلَةٍ خَرَجَتْ مِنَ الرُّكْبَةِ- قَالَ: وَكَانَ يَقُولُ: «وأَيْمُنُكَ لَئِنْ كُنْتَ ابْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتَ، وَلَأَنْ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ»[38].

ولما وصـل عروة المدينة أتته قريش والأنصـار يعزونه في ابنه ورجله؛ فقال له عيسـى بن طلحة بن عبيد الله: يا أبا عبد الله قد صـنع الله بك خيرًا والله ما بك حاجة إلى المشـي، فقال: **ما أحسـن ما صـنع الله إليّ**؛ وهب سـبعة بنين فمتعني بهم ما شـاء ثم أخذ واحدًا وأبقى سـتة، وأخذ عضـوًا وأبقى لي خمسًـا يدين ورجلًا وسمعًا وبصرًا[39].

ومن لطائف المحامد في المسائل العلمية:

ما نقله غير واحد أن إمام النحو ســـيبويه رُئِيَ في المنامِ، فقيل: ما فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فقال: فعلَ بي خيرًا كثيرًا، وغفرَ لي وأدخلني الجنةَ، بجَعْلي اسمَه تعالى أعرفَ المعارفِ. وقد حكى ســـيبويه الإجماعَ على أنَّ لفظ الجلالة أعرفُ المعارفِ غني عن التعريف والبيان[40]، وحكي مثل ذلك عن ابن جني أنه رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وأكرمني بســـبب قولي: (الله) أعرف المعارف. ونُقل عن الخليل بن أحمد أنه رئي بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، بقولي في اسمه (الله) إنه غير مشتق[41].

والذي ذكره الخطيب البغدادي: عن علي بن نصـــر: قال رأيت الخليل بن أحمد في النوم، فقلت في منامي: لا أرى أحدًا أعقل من الخليل، فقلت: ما صـــنع الله بك؟ قال: أرأيت ما كنّا فيه فإنه لم يكن شـــيء أفضـــل من: "سُـبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ". في سـند آخر عن علي بن نصـر، قال:

---

(37) حلية الأولياء (٢ / ١٧٩)

(38) الزهد لأحمد بن حنبل (٣٠١/١).

(39) حلية الأولياء (٢ / ١٧٩)

(40) هداية الراغب شرح عمدة الطالب - مع حاشية ابن قائد (١ / ٣٣)، معنى لا إله إلا الله للزركشي ١٠٦/١، الدر المصون 24/1.

(41) نقلًا عن أبي عبد الرحمن المحروسي في تحقيقه لخطب ودروس الشيخ الطحان 430/1 وأحال للخليل بن أحمد على حاشية المدابغي (٥)، وابن جني على كتاب أحكام البسملة: (١٠).

رأيت الخليل بن أحمد في المنام، فقلت له: ما فعل بك ربك؟ قال: غفر لي. قلت: بمَ نجوت؟ قال: بِلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. قُلْتُ: كيف وجدت علمك -أعني العروض والأدب والشعر-؟ قال: وجدته هباءً منثورًا[42].

ومن لطائف المحامد في مجلس القضاء:

ما حُكي عن الحسين بن علي - رضي الله عنهما -: أنّ رجلًا ادعى عليه مالًا. فقال الحسين: ليحلف على ما ادعاه ويأخذه، فتهيأ الرجل لليمين، وقال: **والله الذي لا إله إلا هو**. فقال الحسين: قل: والله، والله، والله إنّ هذا الذي تدعيه عندي، وفي قِبَلي. ففعل الرجل ذلك. ثم قام فاختلفت رجلاه وسقط ميتًا! فقيل للحسين: لم فعلت ذلك؟! أي عدلت عن قوله: والله الذي لا إله إلا هو إلى قوله: والله والله والله؟! فقال: **كرهت أن يثني على الله، فيحلم عنه**[43].

ابتكار المحامد مشروع في الثناء أو في الدعاء؟

أما الدعاء فمقام خضوع وذلّ، والانشغال بالابتكار يلهي عن الافتقار وتوجه القلب إلى الانشغال بتحسين اللفظ؛ وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: "ادْعُوا اللهَ وأنتم مُوقِنُونَ بالإجابةِ، واعلَمُوا أنَّ اللهَ لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافِلٍ لاهٍ" رواه الترمذي، فإذا لها القلب باللفظ انشغل عن الله، بما يعود على مقصود الدعاء بالضرر والإبطال. قال أبو سليمان الداراني: إِذَا تَكَلَّفَ المتَعَبِّدُوْنَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِالإِعرَابِ، ذَهَبَ الخُشُوْعُ مِنْ قُلُوْبِهِم[44].

ومن هذا كراهية السجع المتكلف في الدعاء، قال النووي في شرحه لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع"، قال: (هَذَا الْحَدِيثُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمَسْجُوعَةِ دَلِيلٌ لِمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ السَّجْعَ الْمَذْمُومَ فِي الدعاء هو المتكلف؛ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ الْخُشُوعَ وَالْخُضُوعَ وَالْإِخْلَاصَ وَيُلْهِي

(42) اقتضاء العلم العمل 92، بستان العارفين للنووي 56.

(43) الطرق الحكمية لابن القيم (١ / ١٠١).

(44) سير أعلام النبلاء 184/10 وفي البداية والنهاية (١٤٧/١٤) (إِذَا تَكَلَّفَ الْمُتَعَبِّدُونَ أَنْ لَا يَتَكَلَّمُوا إِلَّا بِالْإِعْرَابِ، ذَهَبَ الْخُشُوعُ).

عَنِ الضَّـرَاعَةِ وَالِافْتِقَارِ وَفَرَاغِ الْقَلْبِ، **فَأَمَّا مَا حَصَـلَ: بِلَا تَكَلُّفٍ وَلَا إِعْمَالِ فِكْرٍ لِكَمَالِ الْفَصَـاحَةِ ونحو ذلك أو كان مَحْفُوظًا فَلَا بَأْسَ بِهِ بَلْ هُوَ حَسَنٌ**)[45].

وقال ابن تيمية: (يَنْبَغِي لِلدَّاعِي إِذَا لَمْ يَكُنْ عَادَتُهُ الْإِعْرَابَ أَنْ لَا يَتَكَلَّفَ الْإِعْرَابَ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا جَاءَ الْإِعْرَابُ ذَهَبَ الْخُشُوعُ، وَهَذَا كَمَا يُكْرَهُ تَكَلُّفُ السَّجْعِ فِي الدُّعَاءِ فَإِذَا وَقَعَ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ فَلَا بَأْسَ بِهِ، **فَإِنَّ أَصْلَ الدُّعَاءِ مِنْ الْقَلْبِ وَاللِّسَانُ تَابِعٌ لِلْقَلْبِ. وَمَنْ جَعَلَ هِمَّتَهُ فِي الدُّعَاءِ تَقْوِيمَ لِسَانِهِ أَضْعَفَ تَوَجُّهَ قَلْبِهِ** وَلِهَذَا يَدْعُو الْمُضْطَرُّ بِقَلْبِهِ دُعَاءً يَفْتَحُ عَلَيْهِ لَا يَحْضُرُهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ فِي قَلْبِهِ)[46].

الحاصـل: أنّ الدعاء في الأصـل ليس محلًا لانشـغال الذهن بمبتكرات المحامد والمدائح؛ إلا ما جاء فتحًا من الله بلا تكلف؛ أو فصـاحة بلا إعمال فكر، أو كان محفوظًا كفعل ابن تيمية في شـعر المتنبي. ومن أمثلة ذلك ما جاء في الحديث المتفق عليه: من دعاء الصـحابة والنبي صـلى الله عليه وسـلم برجز ابن رواحة أثناء حفر الخندق:

اللـهُمَّ لَـولا أنـتَ مـا اهتَـدَينـا	ولا تَصَـــدَّقنـا ولا صَـــلَّينـا
فـأنـزِلَـنْ سَـــكـينـةً عـلـينـا	وثَـبِّـتِ الأقـدامَ إن لاقَـيـنـا
إنَّ الأعـداءَ قـد بَـغَـوا عـلـيـنـا	إذا أرادوا فِـتـنـةً أَبَـيـنـا

قال ابن حجر: (وجرت عادة العرب باستعماله –الرجز– في الحرب ليزيد في النشاط ويبعث الهمم)[47].

ومن أمثلة الدعاء بشعرٍ فصاحة: دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي خرجه الترمذي:

إن تـغـفـر الـلـهـم تـغـفـر جمـا وأي عـبـد لـك لا ألمـا

فالنبي صـلى الله عليه وسـلم من كمال فصـاحته يتكلم كلامًا موزونًا بأوزان الشـعر أحيانًا وهو لم يُعلم الشعر (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ).

(45) شرح النووي على مسلم (٤١/١٧).
(46) مجموع الفتاوى 489/22.
(47) فتح الباري 161/6.

ومما سبق سرده متفرقًا، نخلص إلى أنّ الشروط لابتكار المحامد حتى تكون مشروعة، هي الآتي:

1-ألا يكون في دعاء تكلفًا.. فإن كان محفوظًا أو بديهة بلا تكلف ولا انشـــغال ذهن فلا حرج، قال ابن تيمية: (يجوز مدح الله والثناء عليه بالنظم وكذلك دعاؤه،... ومنه قول الصحابة:

اللـهـم إن الـعـيـش عـيـش الآخـرة فـاغـفـر لـلأنصـــــار والمـهـاجـرة

وكان النبي - ﷺ - يتمثل به[48]،..وهذا دعاء في الشـــعر وقد أقر الصـــحابة على قوله، فدل على جوازه)[49].

2-ألا يكون مخالفًا للمشروع.. كأن يخترع في مدحه صفة أو اسمًا لله جل وعز.

3-ألا يتضمن المدح سوء أدب أو انتقاصًا؛ كما لو كان مدحه بنفي النقائص تفصيلًا بما لا يعد مدحًا عند العرب. فقاعدة العرب: التفصيل في إثبات الكمال، والإجمال في نفي النقائص.

4-ألا يُتعدى في المحامد المبتكرة رتبتها الشرعية "المندوب -كما مرّ سابقًا-".

ومتى اعتقد فيها فضـيلة اللفظ المسـنون أو دعا إلى التزامها التزام الألفاظ المسـنونة مضـاهاة لها وهجرًا للوارد المنقول؛ فذاك محذور من هذا الوجه.

كن حمّادًا.. ربك "المجيد" يحب المحامد

المحامد: التفكر فيها. النطق بها. سماعها. قراءتها. مبتكراتها: عبادة.

من علامات الإيمان أن تحب ما يحب الله، وربنا يحب المحامد: عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ قَالَ: كُنْتُ شَاعِرًا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَا أُنْشِـــدُكَ مَحَامِدَ حَمِدْتُ بِهَا رَبِّي؟ قَالَ: "إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَحَامِدَ" رواه النســـائي والبخاري في الأدب المفرد. فشجعه صلى الله عليه وسلم على صنيعه في نظم المحامد.

وفي مســند أحمد: أن الأســود قال: يا رســولَ اللهِ، إنِّي قد مدَحتُ اللهَ بمَدحةٍ، ومدَحتُكَ بأُخرى، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هاتِ، وابدَأْ بمَدحةِ اللهِ عزَّ وجلَّ. فاستنشده صلى الله عليه وسلم هذه المحامد ومن التعظيم لله: أمره صلى الله عليه وسلم أن يبدأ بمدْحةِ الله عز وجل.

---

(48) رواه البخاري. قال ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٥٠١: قوله (فاغفر للمهاجرين والأنصـار) وفي حديث أنس بعده: (فاغفر للأنصـار والمهاجرة)، وكلاهما غير موزون، ولعله - ﷺ - تعمد ذلك.

(49) الاستغاثة في الرد على البكري 298-302.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستنشد شعر أمية بن أبي الصلت لما فيه من ثناء على الله، فعن الشريد الثقفي رضي الله عنه قال: رَدِفتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومًا، فقال: هل معكَ مِن شِعرِ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلتِ شَيءٌ؟ قُلتُ: نَعَم، قال: هِيه، فأنشَدتُه بَيتًا، فقال: هِيه، ثُمَّ أنشَدتُه بَيتًا، فقال: هِيه، حتَّى أنشَدتُه مِائةَ بَيتٍ، وقال صلى الله عليه وسلم استحسانًا لمدائح أمية "فلقد كادَ يُسلِمُ في شِعرِه" رواه مسلم. وكان أمية قد قرأ الكتب، ويتعبد في الجاهلية ويؤمن بالبعث، ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر بأن نبيّا يبعث قد أظلّ زمانه، فلما سمع بخروج النبي ﷺ وقصّته، كفر حسدًا له. قال الدميري: وذكر عن سهل أن النبي ﷺ لما سمع قول أمية:

لك الحمد والنعماء والفضـــل ربنا فلا شـــيء أعلى منك حمدًا وأمجدا

قال صلى الله عليه وسلم: آمن شعر أمية وكفر قلبه[50]. وقيل: إنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك لما سمع قصيدته:

مجـدوا الله فَـهُـوَ لـلـمـجـد أهـل رَبنَا الله فِي السَّـمَاء أَمْسَـى كَبِيرا[51]

وأما التفكر في المحامد:

فدليلها قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما يحكي برنامج النبي صلى الله عليه وسلم في الليل؛ قال: بِتُّ عِندَ خالَتي مَيمونةَ، فتَحَدَّثَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع أهلِه ساعةً، ثُمَّ رَقِدَ، فلَمَّا كان ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، **قَعَدَ فنَظَرَ إلى السَّماءِ**، فقال: {إنَّ في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لَآياتٍ لأولي الألبابِ}، ثُمَّ قامَ فتَوضَّأ واستَنَّ فصَلَّى إحدى عَشرةَ رَكعةً، ثُمَّ أذَّنَ بلَالٌ، فصَلَّى رَكعَتَينِ ثُمَّ خَرَجَ فصَلَّى الصُّبحَ. فنظر صلى الله عليه وسلم في السماء يشحذ القلب تفكرًا في جميل صنع الله تعالى وتلاوة الآية تفصح عمّا كان يتحدث به قلب الخليل صلى الله عليه وسلم، ثم بعد هذا التفكر في المحامد قام فصلى الوتر يحمد الله قائمًا وقاعدًا في صلاته..

---

(50) المعارف لابن قتيبة (١ / ٦٠) السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير (١ / ١٣). وحكى جملة "آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ" ابن عبدالبر في التمهيد في خبر بإسناده. التمهيد ٤/٧، وقال ابن كثير: (فَأَمَّا الَّذِي يُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي أُمَيَّةَ آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ فَلَا أَعْرِفُهُ) البداية والنهاية (٣ / ٢٩٤).

(51) العلو للعلي الغفار للذهبي (٥٠).

آية آل عمران: مدح الله من يتفكرون في جميل صنع الله جل وعز وتعالى ويتفكرون في حكمته من إيجاد المخلوقات. وفعله صلى الله عليه وسلم تطبيق عملي لهذه الآية..

التفكر في صـــنع الله تعالى يدفع العبد إلى ذكر الله تعالى قائمًا وقاعداً وعلى جنبه بقدر تفكره ولهذا قرن الله بين التفكر والذكر.

إنك كلما تفكرت: رأيت نعمة وحكمة.. أبصـرت رحمة وخبرة.. تجلى لك عظمة وهيبة؛ (هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَـــلَالٍ مُّبِينٍ) (صُـــنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَـــيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ).

التفكر يوجب –إذا عقل العقل–: خضـــوع القلوب فتذل للعظيم طمعاً وخوفًا وحباً وإجلالًا، **فتنطق الألسـن حمدًا وتمجيدًا.. ثم يحدث عبادة وعملًا..** أخرج أَبُو الشَّيْخ والديلمي عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا: "بَيْنَمَا رجل مستلق ينظر إِلَى السَّمَاء وَإِلَى النُّجُوم فَقَالَ: وَالله إِنِّي لأعْلم أَن لَك خَالِقًا وَربا؛ اللَّهُمَّ اغْفِر لي. فَنظر الله إِلَيْهِ فغفر لَهُ"(52).

قال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرجُ من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عَلَي فيه نِعْمَة، أوْ لِي فيه عِبْرَة. وقال وهب بن مُنَبِّه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله، عز وجل، حَسَـــن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة(53).

(52) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي (٢ / ٤١٠).

(53) يراجع في هذه الأقوال تفسير ابن كثير 184/2 عند آية آل عمران.

من لطائف التفكر:

في سَيْلِ الْجُحَافِ –سيل عظيم بمكة في الحج–، نَظَرَ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ إِلَى أَعْرَابِيٍّ فِي سَيْلِ الْجُحَافِ وَهُوَ يَذْهَبُ بِهِ تَارَةً وَيَطْفُو بِهِ أُخْرَى، وَكان يَقُولُ الأعرابي وهو في ذلك الحال من الكرب: مَرَتْهُ الصَّبَا وَلَقَحَتْهُ الْسحائب.

فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ: كُنْ مَنْ شِئْتَ فَأَشْهَدُ أَنَّكَ كَرِيمٌ(54).

"مرته" أي: استخرجته، واستدرّته. من مرا، يمري مريا، إذا مسح ضرع الناقة لتدرّ لبنها. كأنه يريد أن ريح الصبا "الريح من جهة المشرق" قد استخرجت هذا المطر من السحاب. ولقحته السحائب: حملت به السحب(55).

فالأعرابي وهو في كرب وضرّ ويقوده السيل إلى هلكة؛ إلا أنه كان في نشوة وفرح بالماء ويثني على النعمة التي نزلت وإن تضرر منها، وتضمن ثناؤه: ثناءً على صنع الله تعالى وما أوجد من رياح لواقح وسحب حاملة للخير. وأما قول ابن أبي عتيق: فشهد له بكرم النفس؛ واستنتجه من حاله: في كرب ومع ذلك يثني على السحاب والمطر الذي تضرر منه؛ أثنى عليه للنفع منه لغيره.. وهذا الحال لا يكون إلا من كريم.

ومن اللطائف في مدح المجيد:

قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: «صَحَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ أَنَّ امْرَأَتَهُ رَأَتْهُ مَعَ جَارِيَتِهِ فَذَهَبَتْ لِتَأْخُذَ سِكِّينًا! فَقَالَ: مَا فَعَلْتُ. فَقَالَتْ: بَلَى قَدْ رَأَيْتُكَ، قَالَ: فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَدْ نَهَى عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، قَالَتْ: فَاقْرَأْ!

فَقَالَ ابن رواحة شِعْرًا:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا
وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ كِرَامٌ ... مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُسَوِّمِينَا

(54) أخبار مكة للفاكهي 106/3 وفي الأصل "الجبائب" لكن ذكر المحقق أن الظن أنها مصحفة من السحائب.

(55) مستفاد من محقق أخبار مكة د. الدهيش. وفي غريب الحديث للحربي 84/1: يُقَالُ: مَرَيْتُ الدَّمَ: اسْتَخْرَجْتُهُ، وَسَيَّلْتُهُ، وَمَرَيْتُ الضَّرْعَ إِذَا مَسَحْتُهُ، وَاسْتَخْرَجْتُ لَبَنَهُ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: ارْفُقْ بِمُرْيَةِ نَاقَتِكَ إِذَا مَرَاهَا. وَمَرْيُهُ إِيَّاهَا: أَنْ يَمْسَحَ بِيَدَيْهِ عَلَى ضَرْعِهَا لِتَدِرَّ، وَالرِّيحُ تَمْرِي السَّحَابَ: تَسْتَخْرِجُ مَاءَهُ.

فَقَالَتْ: صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَصَرِي، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فَأَخْبَرَهُ فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ"، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ الْحَافِظُ: رُوِيَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مِنْ وُجُوهٍ (صِحَاحٍ) عَنِ ابْنِ رَوَاحَةَ[56]. وهذا من كذب الإصلاح بين الزوجين. والشاهد: لجأ ابن رواحة رضي الله عنه إلى الشعر واختار من الشعر أسماه: مدح الجليل جل وعز، ثم أنشده بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم.

ولسائل أن يسأل:

ما الحكمة من مشروعية المدح والثناء على الله؟ والله غني مجيد.. غني عن العالمين ومدائحهم!

1-نعم؛ (اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)، والعباد فقراء إلى الله.. ومن فقرهم: افتقارهم إلى مدح الله الملك المهيمن؛ انشغالهم بمدحه والثناء عليهم يغذي الأرواح سكينة وطمأنينة، يغذيها توكلًا واعتمادًا، يداويها من الهموم والغموم والأحزان..

وأيضًا: الثناء على الله بما هو أهله يفتح للعبد معرفة نفسه وضعفه وفقره وعجزه ومسكنته وينزل بهذه المعرفة منازل العبودية لله رب العالمين.

2- (اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ).. غني عن المدائح إن وجدت فلا تزيد في ملكه شيئًا، وإن فقدت لم ينقص من ملكه تعالى جده شيئًا.. لكنه حميد للمادح، يحمده ويثيبه، فالمنفعة للعباد بما يثيبهم عليها من خير في الدنيا وفي الآخرة. المدائح عبادة؛ كالصلاة والزكاة وغيرهما من العبادات المنفعة فيها للعباد وحدهم.

(مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) يهيئون ولأنفسهم يعمرون آخرتهم ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها. (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) فنفع الشكر -ومنه المدائح والثناء- نفعه للعابد؛ لأنّ الله يجزل له على شكره إياه الثواب، وينقذه به من الهلكة[57]. قال النووي: (حَقِيقَةُ هذا -مدح الله والثناء عليه- مَصْلَحَة لِلْعِبَادِ؛ لِأَنَّهُمْ يُثْنُونَ عَلَيْهِ سبحانه وتعالى فَيُثِيبُهُمْ فَيَنْتَفِعُونَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ لَا يَنْفَعُهُ مَدْحُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُ تَرْكُهُمْ ذَلِكَ)[58]، وقال ابن الملقن: (وحب الله المدح ليس من جنس ما نفعل من حب المدح، وإنما الرب تعالى أحبّ الطاعات ومن جملتها مدحه؛ ليثيب على ذلك، فينتفع المكلف لا لينتفع هو بالمدح، ونحن نحب المدح

(56) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (٣٠٨).
(57) ينظر: تفسير الطبري وابن كثير والسعدي.
(58) شرح النووي على مسلم (١٧ / ٧٧).

لننتفع به ويرتفع قدرنا في قومنا، فظهر أن من غلط العامة قولهم: إذا كان الله يحبه فكيف لا نحبه نحن، نبه على ذلك ابن عقيل)[59].

3-مدح العبد لربه: ينفي عن العبد الكبر والتعالي والفخر ألا يطغى؛ فالذي لا ينسب الفضل لأهله "الله" ويحمده عليه: فيه تيه وطغيان وكبر وإمامه قارون حينما (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) فخسف الله به وبداره الأرض ثم قال تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). وفي الصحيحين: خبر الثلاثة نفر من بني إسرائيل الأعمى والأبرص والأقرع؛ نجا الأعمى بحمد لربه والثناء عليه، وهلك الأبرص والأقرع لطغيانهم وكبرهم وعلوهم على أن ينسبوا الفضل لله جل وعز.

قال ابن رجب: (كان أئمةُ الهُدى ينهَوْن عن حمدِهم على أعمالِهم وما يَصدُرُ منهم منَ الإحسان إلى الخلْقِ، ويأمرُونَ بإضافةِ الحمدِ على ذلكَ للَّهِ وحدَهُ لاشريكَ لهُ، فإن النِّعَمَ كلَّها منه. وكانَ عُمرُ بنُ عبد العزيزِ – رحمه الله – شديدَ العنايةِ بذلكَ، وكتبَ مرَّةً إلى أهلِ المؤسم كتابًا يُقرأ عليهم، وفيه الأمرُ بالإحسانِ إليهم، وإزالةُ المظالم التي كانَتْ عليهم، وفي الكتابِ: "ولا تَحْمدُوا على ذلكَ كُلِّه إلا الله، فإنَّه لوْ وَكَلَنِي إلي نفْسي كُنْتُ كغيرِي")[60].

4-مدح الله نفسه؛ لأنه يحب المدح؛ وليتعلم العباد المدح المشروع ألا يسيئوا الثناء عليه بما هو نقص لا مدح، فإنّ العباد لا يهتدون لحسن الثناء إلا بعد معرفة موجبات حمده، بمعرفة أسمائه وصفاته المقتضية مدحه وحمده والثناء عليه والتعرف عليه بجميل صنعة وأفعاله.

ثم الله جل وعز أمر العباد بشكره والثناء عليه؛ لأنه أهل لذلك جل وعز فهو باب عبودية؛ ولأن في مدحه التعريف بحق قدره ألا نكون ممن ذمهم الله بأنهم (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)؛ ولولا ما أمرنا الله به في هذا

---

(59) التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن (٢٢ / ٣٣٩). وقال ابن رجب: ..ومن هذا الباب أيضًا أن يحبَّ ذُو الشرفِ والولايةِ أن يُحمدَ على أفعالِهِ ويُثْنَى عليه بها، ويَطلبُ من الناسِ ذلك، ويَتَسببُ في أذى من لا يُجيبُه إليه، وربَّما كان ذلك الفعلُ إلى الذمِّ أقربَ منه إلى المدح، وربَّما أظهر أمرًا حسنًا في الظاهرِ، وأحبَّ المدحَ عليه وقصَدَ به في الباطنِ شرًّا، وفرِحَ بتمْويهِ ذلك وترويجه على الخلقِ. وهذا يدخلُ في قولِهِ تعالى: (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ)، الآية. فإن هذه الآيةَ إنما نزلتْ فيمن هذهِ صفاتُهُ، **وهذا الوصفُ – أعني: طلبَ المدح منَ الخلقِ ومحبَّتَهُ والعقوبةَ على تركِهِ – لا يصلحُ إلا للَّه وحدَهُ لا شريكَ لهُ)** تفسير ابن رجب الحنبلي (١ / ٢٧٥).

(60) تفسير ابن رجب الحنبلي (١ / ٢٧٦).

الباب، وعرفنا عليه: لما أدركنا ما يليق بعظمته وجلاله من المدح والثناء الحســـن، ولما تعرفنا على ربنا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، فإن معرفة ذلك هي أساس مدحه والثناء عليه، وهو أساس معرفة العبد بربه[61].

لطيفه: ذكر ابن القيم أربعة مواطن هي محك ظهور محبة العبد لربه[62]:

الموطن الأول: عند أخذ مضجعه وتفرغ حواسه وجوارحه الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحبه. فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشــغل قلبه به. وإذا تأملت أذكار النوم المأثورة عن النبي صــلى الله عليه وســلم فكلها ثناء ومحامد لله جل وعز.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه. فإنه إذا استيقظ وردت إليه روحه رد معها إليه ذكر محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النوم. وكذلك النبي صـلى الله عليه وسـلم يفعل في أذكار اليقظة من النوم.

الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محك الأحوال وميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه. والصـلاة من تكبيرة الإحرام حتى الانصـراف منها إلى الأذكار التي تليها كلها محامد وثناء وخضوع وذلّ.

الموطن الرابع: عند الشــدائد والأهوال، فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشــياء إليه، ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده. ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاءِ، وهو كثير في أشعارهم كما قال:

ولقــد ذكرتــك والرمــاح كــأنها أَشـــطــان بئر في لبــان الأَدهم

والسـر في هذا- والله أعلم- أنه عند مصـائب الشـدائد والأهوال يشـتد خوف القلب من فوات أحب الأشـــياءِ إليه، وهي حياته التي لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه، فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه، فإذا خاف فوتها بدر إلى قلبه ذكر المحبوب الذي يفوت بفوات حياته. ولهذا- والله أعلم- كثيرًا ما يعرض للعبد عند موته لهجه بما يحبه وكثرة ذكره له، وربما خرجت روحه وهو يلهج به.

(61) جزء من هذه الفقرة -الجواب على السؤال- مستفاد من موقع الإسلام سؤال وجواب.

(62) مختصرًا من طريق الهجرتين وباب السعادتين (306 -٣٠٩).

ومن كان مشـــغولًا بالله وبذكره ومحبته في حال حياته، وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولًا بغيره في حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت ما لم تدركه عناية من ربه، ولأجل هذا كان جديرًا بالعاقل أن يلزم قلبه ولســـانه ذكر الله حيثما كان لأَجل تلك اللحظة التي إن فاتت شقي شقاوة الأبد. فنسأَل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته..

اللهم ألهمنا شكرك وذكرك في السراء والضراء وعلى كل حال..

اللهم افتح علينا من محامدك وحسن الثناء عليك.. اللهم اجعلنا لك شاكرين.. حمّادين..

اللهم لا حول لنا ولا قوة إلا بك.. اللهم إياك نعبد وإياك نستعين.. ذو القعدة 1447هـ

ملحق

وقفت على مدارسة بلاغية في موقع تدارس القرآن https://tadars.com/tdbr/eloquence/2461 يقارن فيها بين لفظ (الحمد لله) والمدح والشكر وألفاظ أخرى، ويبين جمال لفظ (الحمد لله) مطلع القرآن وسورة الفاتحة..

ولما بين هذه المدارسة وابتكار المحامد من صلة، أرفقتها بالبحث، هدانا الله أجمعين لحسن محامده وذكره.. آمين. فإلى الملحق:

(﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة آية:٢]

(الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

* (الْحَمْدُ للهِ) جملة مؤلفة من كلمتين، هل كان من الممكن استعمال كلمات أخرى أو التغيير في وضعها؟ في الظاهر.. نعم.. هناك كلمات وأساليب تحمل المعنى نفسه، ولكن هل تفي بالمراد؟ وماذا عن المعنى العام؟

١. المدح لله

– المدح هو الثناء وذكر محاسن الغير من الصفات والأعمال أما الحمد فهو الثناء على الجميل من النعمة أو غيرها وذكر المحاسن مع التعظيم والمحبة فأيهما أقوى؟

– المدح قد يكون للحي ولغير الحي، وللعاقل وغير العاقل من جماد أو حيوان كالذهب والديك أما الحمد فيخلص للحي العاقل.

– المدح قد يكون قبل الإحسان أو بعده أما الحمد فلا يكون إلا بعده، فالحمد يكون لما هو حاصل من المحاسن في الصفات أو الفعل فلا يحمد من ليس في صفاته ما يستحق الحمد أما المدح فقد تمدح إنسانًا ولم يفعل شيئًا من المحاسن، ولذا كان المدح منهيًا عنه.

– المدح لم يرد في القرآن الكريم لا بالمصدر ولا بالمشتقات ولا أي صيغة من صيغ المدح لما في المدح من احتمال الصدق والكذب. [لكنه جاء في صحيح السنة "لا أحَدَ أحَبُّ إليه المِدحةُ مِنَ اللهِ"].

** يظهر لنا مما تقدم أننا عندما نقول (الْحَمْدُ للهِ) فإننا نحمد الله الحي الذي اتصف بالصفات الحسنى والفعل الجميل فاستحق الحمد على صفاته وعلى فعله وإنعامه، ونعترف له بالتفضل والتكرم فقد أسبغ علينا

من إحسانه ظاهرًا وباطنًا ما لا يعد ولا يحصى، مع إظهار تعظيمنا وإجلالنا له وتأكيد توجه محبتنا إليه، ولو قال المدح لله لم يفد شيئًا من ذلك.

٢. الشكر لله

-الحمد يقتضي المحبة والتعظيم والشكر ليس فيه ذلك فحينما تشكر إنسانًا ليس شرطًا أن تعظّمه أو تحبه.

ـــ لا يكون الشكر إلا على ما وصل للشـــخـــص من النعم، أما الحمد فعلى ما وصل إليه وإلى غيره، فالشكر إذن أضيق نطاقًا.

ـ الشكر يختص بالنعم ولا يوجه للصفات، فنحن لا نشكر فلانًا على علمه أو قدرته، أما الحمد فيكون على النعم وعلى الصفات الذاتية وإن لم يتعلق شيء منها بنا.

** مما تقدم يتضح لنا أن المدح أعم من الحمد، وأن الحمد أعم من الشكر وفي الأول تعميم لا يناسب المقام، وفي الأخير تخصيص غير مناسب أيضًا فهل يمكن استعمال واحدة من هذه العبارات؟

٣- الثناء على الله

الثناء لا يأتي إلا مع (على) وفيه نوع من الاستعلاء لا ينسجم مطلقًا مع بداية الفاتحة ولكن أنت تقول حمده وحمد له فعله والتعدي باللام تقرّبه، لا نجد أثنى على الله ابتداء إنما يقول حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله تأتي ملحقة لا تأتي منفردة لأن فيها نوع من الاستعلاء، ولم يرد الثناء بكل تصريفاته في كتاب الله عز وجل.

٤. أحمد الله أو نحمد الله أو احمدوا الله

ـ هي جمل فعلية تدل على الحدوث وتجدد الفعل أما (الْحَمْدُ للهِ) فجملة اسمية تدل على الدوام والثبوت؛ لذا فمن القواعد المعروفة في اللغة أن الجملة الاسمية أقوى من الجملة الفعلية؛ لأن:

ـ الجملة الفعلية تختص بفاعل معين أو جماعة تؤمر بالحمد، ولكن ماذا عن غيرهم من الناس؟ أما الجملة الاسمية فلا تحدد فاعل معين فهو المحمود على وجه الاطلاق منك ومن غيرك.

– الجملة الفعلية ترتبط بزمن معين مما يعني أن الحمد لا يحدث في غير هذا الزمن الذي يتم فيه الحمد. وزمن الإنسان زمن محدد معين، يرتبط أو يساوي عمره على أقصى تقدير، فلا يتجاوزه إلى ما بعده ولا يبدأ

قبله، فيكون الحمد أقل مما ينبغي بكثير أما في الجملة الاسمية فالحمد مطلق مستمر، فهو كان محمودا قبل حمد الحامدين وقبل شكر الشاكرين.

-الجملة الفعلية لا تفيد أن المفعول مستحق للفعل، فقد نشكر من لا يستحق الشكر، أما الجملة الاسمية فتفيد استحقاقه للحمد تأكيدًا فالحمد والثناء حق لله تعالى ثابت له يستحقه لذاته ولصفاته ولما أنعم من آلائه.

-وإن كان الفعل للأمر (احمد أو احمدوا) فإن المأمور قد يفعل ما أمر به دون اقتناع، وإنما خوفا من الآمر أو رغبة في شيء.

-والحمد صفة قلبية، وهي اعتقاد كون المحمود متفضلًا منعمًا مستحقا للتعظيم والإجلال، فإذا تلفظ الإنسان بالجملة الفعلية ذات الفاعل والزمن المحددين وكان قلبه غافلا عن معنى التعظيم اللائق كان كاذبا، أما إن تلفظ بالجملة الاسمية فإنه يكون صادقًا وإن كان قلبه غافلا لاهيا، لأنها تفيد أن الحمد حق لله، وهذا حاصل سواء عقل أم غفل.

٥. الحمدَ لله (بالنصب)

- جائزة على تقدير فعل محذوف، فتكون جملة فعلية والجملة الاسمية أقوى كما تقدم، فقراءة الرفع (الحمدُ لله) تفيد ثبوت الشيء على جهة الاستحقاق ثباتًا دائمًا، فهي أولى من قراءة النصب.

٦. حمدًا لله

-هي جملة فعلية نقدر لها فعلًا محذوفًا، والجملة الاسمية (الحمدُ لله) أقوى.

-(الحمدُ لله) معرّفة بأل، و (أل) تفيد العهد وتفيد استغراق الجنس، فإن أفادت العهد كان المعنى: الحمد المعروف بينكم هو لله، وإن أفادت الاستغراق كان المعنى: إن الحمد كله لله على سبيل الإحاطة والشمول. ويظهر أن المعنيين مرادان، أما (حمدا لله) فنكرة لا تفيد شيئًا من المعاني المتقدمة.

٧. إن الحمد لله

-(إن) تفيد التوكيد، وليس المقام مقام شك أو إنكار يقتضي توكيدًا.

-(إن الحمدَ لله) جملة خبرية تحمل إلينا خبرًا واضحًا محددًا (ثبوت الحمد لله تعالى) ولا تحتمل إنشاء، أما (الحمدُ لله) فتفيد الإخبار بثبوت الحمد لله، فهي خبرية ولكنها تفيد إنشاء التعظيم واستشعار نعم الله علينا، وفيها معنى الدعاء، فهي ذات معان أكثر.

٨. لله الحمد

-(لله الحمدُ) فيها تقديم الجار والمجرور، وفي التقديم اختصاص وحصر أو إزالة شك، والمقام في سورة الفاتحة هو مقام مؤمنين يقرون بالعبادة ويطلبون الاستعانة والهداية، فليس هناك من ادعى أن ذاتًا أخرى قد تشترك معه في الحمد فنزيل الظن عنده، أو أن الحمد لغير الله لنخصه به؟

-كما أن الحمد في الدنيا ليس مختصا لله وحده، وإن كان هو سببه كله، فالناس قد يحمد بعضهم بعضًا، وفي الحديث (من لم يحمد الناس لم يحمد الله)، فيجوز توجيه الحمد لغير الله في ظاهر الأمر، فلا حاجة للاختصاص بالتقديم.

٩. اختصاص الاسم العلَم (الله) بالذكر، دون سائر أسمائه الحسنى وصفاته

-كان يمكن أن يقال الحمد للحي، الحمد للرحيم، الحمد للبارئ..، ولكن لو حدث ذلك لأفهم أن الحمد إنما استحقه لهذا الوصف دون غيره، فجاء بالاسم العلَم ليدل على أنه استحق الحمد لذاته هو لا لصفة من صفاته.

-ثم إن ذكر لفظ الجلالة (الله) يناسب سياق الآيات، فسيأتي بعدها بقليل "إياك نعبد وإياك نستعين" ولفظ الجلالة (الله) مناسب للعبودية، لأنه مأخوذ من لفظ الإله أي المعبود.

هذا والمجيء بوصف غير لفظ الجلالة ليس فيه تصريح بأن المقصود هو الله عز وجل.

*كلمة الحمد لله وحدها بُدئ بها في أربع سور أخرى كأنما هذه البدايات تحاول أن تبيّن نماذجًا من الحمد، يُحمَد الله عز وجل هنا لرحمته وهنا لفضله وهنا لعلمه وهنا لإعطائه العلم للآخرين وهنا لخلقه السموات والأرض، فكأن بدايات السور متكاملة:

-في الفاتحة الحمد لله هو جنس الحمد، نظام كليٌّ وهناك جزئيات في بدايات أربع سور أخرى بينها نوع من التلازم والتشابك.

-في الأنعام (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) الكلام على بدء الخلق وفيه معنى التقدير والتصوير، ومن رحمة الله سبحانه تعالى جعل الظلمات والنور.

-في فاطر (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا) هذه المنشيء، ثم تكلم على جعل الملائكة.

-في سبأ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) هذا الذي في السموات والأرض ملك لله سبحانه وتعالى.

-في الكهف (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) الملائكة والرسل وإنزال الكتاب نماذج من آلآء الله ونعمه التي يُحمد عليها.

(رَبِّ الْعَالَمِينَ):

* اختيار كلمة (رَبِّ) هي أنسب ما يمكن وضعه بعد (الْحَمْدُ للهِ) فهو أولى بالحمد من غيره؛ لأن الرب هو المالك والسيد والمربي والمنعم والقيّم. فإذًا: رب العالمين هو ربهم ومالكهم وسيدهم ومربيهم والمنعم عليهم وقيُمهم، وتناسب ما بعدها (اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ)؛ لأن من أولى مهام الرب الهداية لذا اقترنت الهداية كثيرًا بلفظ الرب كما اقترنت العبادة بلفظ الله تعالى.

*اختيار كلمة (الْعَالَمِينَ):

-العالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى ويجمع على العوالم وعلى العالمين، رب العالمين يقتضي كل صفات الله تعالى ويشمل كل أسماء الله الحسنى. لكن اختيار العالمين على العوالم أمر بلاغي لأن العالمين خاص للمكلفين وأولي العقل والعلم فقط.

-لا تستعمل كلمة العالمين إلا إذا اجتمع العقلاء مع غيرهم وغلبوا عليهم، والعالمين جمع العالم بكل أصنافه لكن يغلُب العقلاء على غيرهم فيقال لهم العالمين لا يقال لعالم الحشرات أو الجماد أو البهائم العالمين، أما العوالم قد يطلق على أصناف من الموجودات ليس منهم المكلفون (تقال للحيوانات والحشرات والجمادات).

-العالمين تشمل جيلًا واحدًا وقد تشمل كل المكلفين أو قسمًا من جيل كما جاءت في قصة سيدنا لوط بمعنى قسم من الرجال (قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ).

-السورة كلها في المكلفين وفيها طلب الهداية وإظهار العبودية لله وتقسيم الخلق كله خاص بأولي العقل والعلم لذا كان من المناسب اختيار العالمين على غيرها من المفردات او الكلمات لتشمل كل العالمين لا بعضهم.

* الحمد لله رب العالمين جاءت في أكثر من موضع جاءت في أول الفاتحة تحميدًا وتمجيدًا لله سبحانه وتعالى وبها يختم العمل والدعاء وتأتي في سور أخرى في سياق الحديث عن الآخرة أي الحمد لله رب العالمين في البدء وفي الختام:

- الحمد لله رب العالمين في بداية الفاتحة بعد البسملة معناه بداية عمل.

- في نهاية سورة الصافات بعد الحديث عن الكون وما يضم إلى قيام الساعة وانتهاء الحياة (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)).

- في نهاية سورة الزمر (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ... وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)).

- في الأنعام (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)) هنا نهاية عمل في نهاية الحياة انتهى أمرهم.

- في يونس (وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)) في آخر الدعاء في الجنة.

- في غافر (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)) هنا يحتمل في أول الدعاء وآخره.

انتهى.. والحمد لله رب العالمين.